

BOBST LIBRARY



3 1142 01216 2601

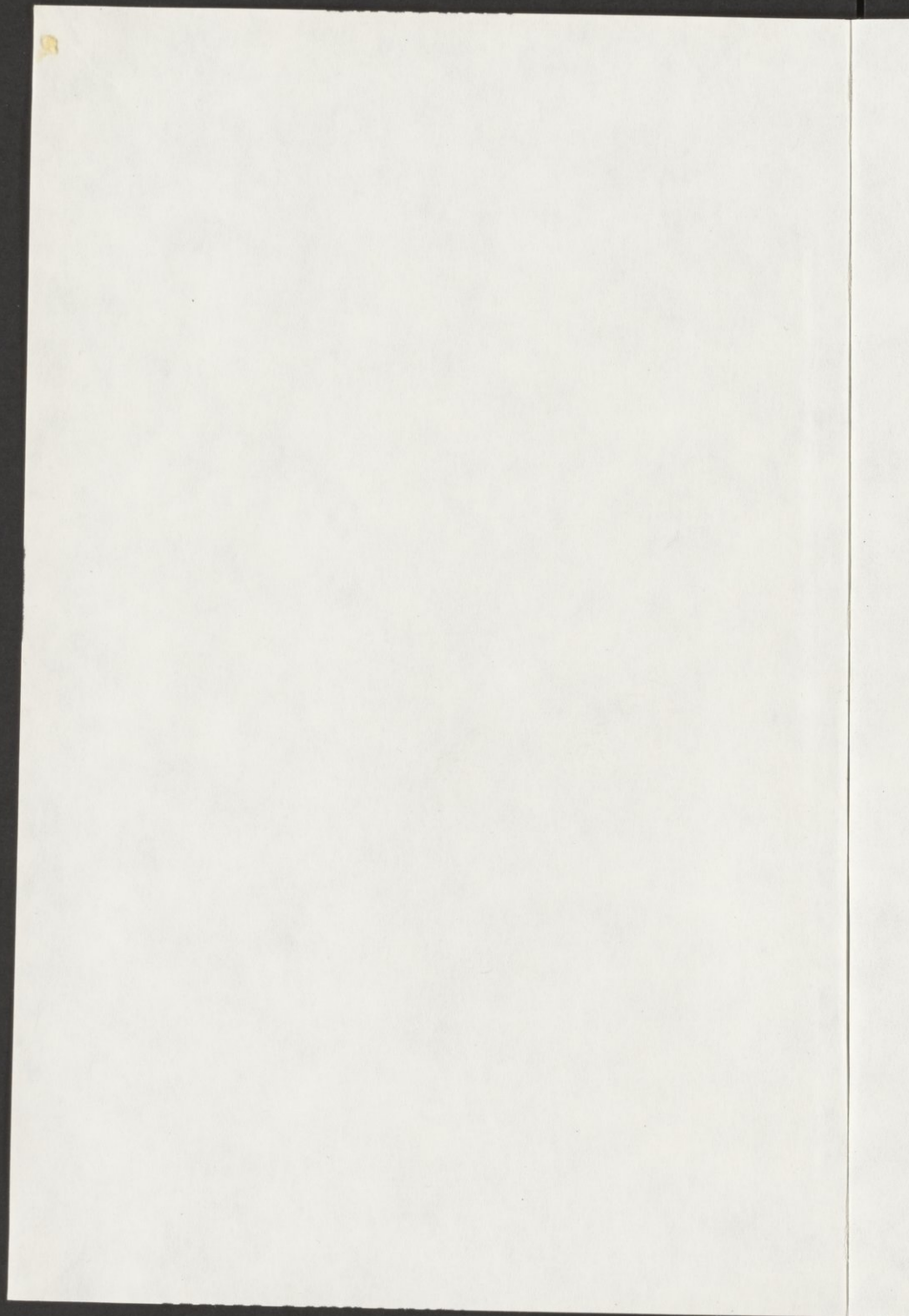
DATE DUE

DATE DUE

DATE DUE	DATE DUE
<p>NEW YORK UNIVERSITY BOBST LIBRARY</p> <p>C I R C</p> <p>JAN - 6 1992</p> <p>70 WASHINGTON SQ. S. NEW YORK, N.Y. 10012</p>	
<p>NEW YORK UNIVERSITY BOBST LIBRARY</p> <p>C I R C</p> <p>FEB 23 1993</p> <p>FEB 23 1993</p> <p>70 WASHINGTON SQ. S. NEW YORK, N.Y. 10012</p>	









**DATE DUE**


th  
/



6661 Tāhā Husayn

" / Mir'at al-damir al-hadith

X3  
3

طهين

# مِرَاة الضمير الحديث



دار العلم للملايين  
بيروت

JAN 31 1992

01216-2601

PJ

7864

A35

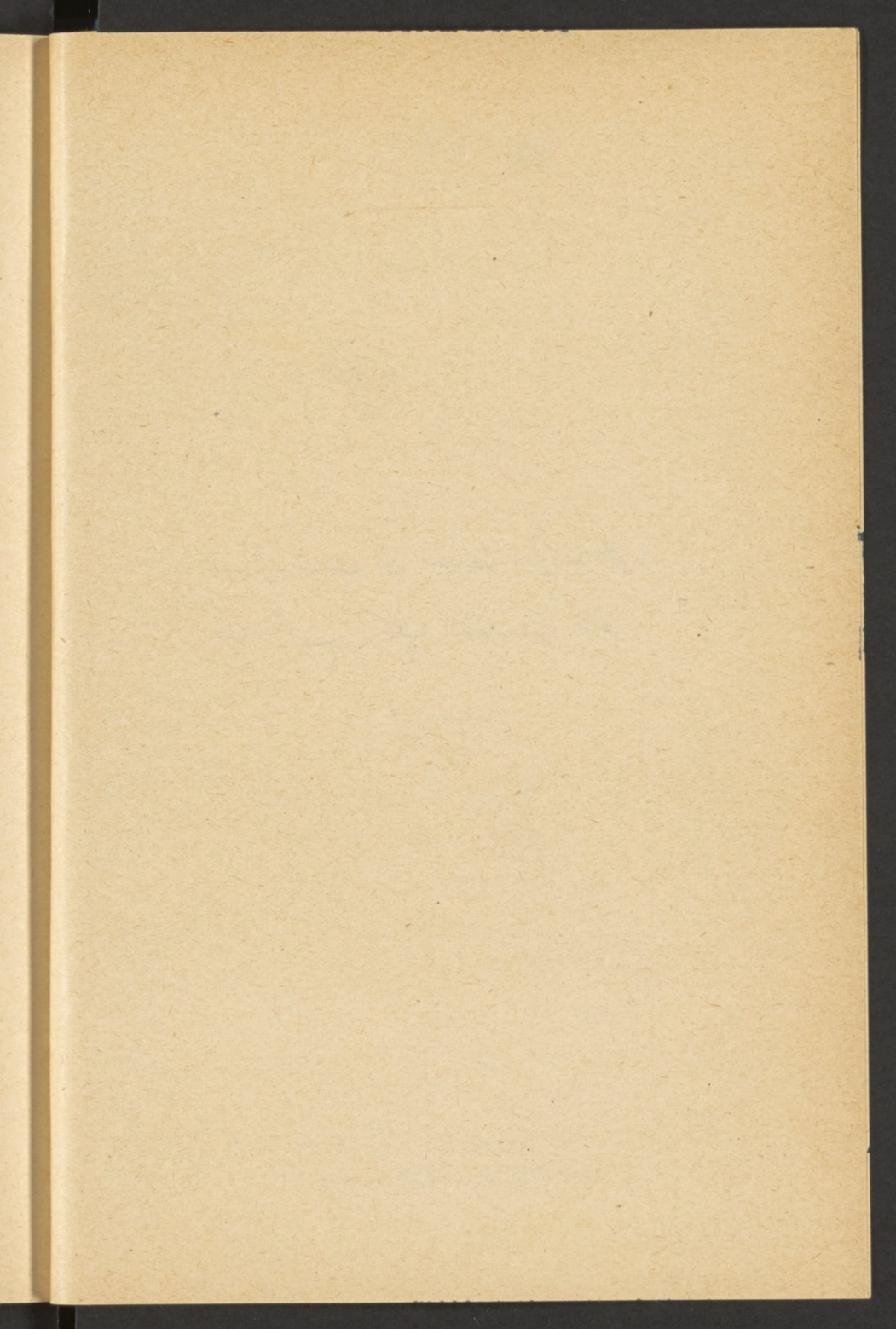
MS

1953

c.1

الطبعة الاولى نيسان ( ابريل ) ١٩٤٩  
الطبعة الثانية كانون الثاني ( يناير ) ١٩٥٣

رسائل تنسب الى الجاحظ وأراها محمولة  
عليه لأن تكلف التقليد فيها ظاهر .



أقبل عليّ صاحبي مبتهجاً باسم الثغر  
عشرق الوجه والنفس جميعاً يقول : لقد  
جئتك بطرفة ما اشك في انك ستنعم بها  
بالأ ، وسترضى عنها كل الرضى ، وستؤثرها  
على كثير من الطبيبات في هذه الايام التي  
تقلّ فيها الطبيبات . قلت : وما ذاك ؟ قال  
كتاب مخطوط لم تعرفه المطبعة بعد .  
ظفرت به عند بعض الوارقين وفيه رسائل  
مختلفة للجاحظ وغير الجاحظ ، من كتاب  
القرن الثالث والرابع للهجرة . ولم اكد  
انظر فيه حتى بهرتي وسحرتي وكهت ان  
اوثر نفسي بقراءته ، فجئت أظهرك عليه  
وأشركك في الاستمتاع به . ثم اخذ يقرأ  
عليّ منه رسالة للجاحظ كتبها الى محمد بن عبد  
الملك الزيات وسماها « رسالة الشكر  
والكفر » وابتدأها على هذا النحو :

## رسالة التكر والذكر

يسرّك الله للخير ويسر الخير على يديك ، وهداك الله الى الحق وجعلك الى الحق هادياً ، وذلك الله على الصواب وجعلك على الصواب دليلاً ، وعصمك الله من الشر الذي يُلقِي باصحابه الى التهلكة ، وجنّبك الباطل الذي يوفي بأهله على النار ، وحماك من الخطأ الذي يورط أهله في الخيرة ، ويشرف بهم على الزيغ ، وألهمك الله شكر النعمة ، فانه تمام المروءة وكمال الرجولة ، وسبيل الاستزادة من الخير ، وآية الارتفاع عن النقص ، والتنزه عما يجعل الرجل ندلاً فسلاً ، وخسيساً لثيماً . ولهذا اخبر الله عز وجل بقوله الشاكرين للنعمة الذاكرين للعرف ، فقال : « اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور » . والله عز وجل ،

يريد لعباده الخير ، ويأبى لهم الشر ، ويدعوهم الى أن يرتفعوا عن النقائص ، ويتزهدوا عن الصغائر ، فهو يذكرهم بنعمه عليهم ، وآلائه فيهم ، ويأمرهم ألا ينسوا ما يهدي اليهم من فضل ويسدي اليهم من معروف ، وينذرهم بالعقاب الشديد ، والعذاب الأليم ان كفروا النعمة او جحدوا الصنيعة . يعجل لهم العذاب في الدنيا ، ويؤجل لهم العذاب في الآخرة . ولهذا قال عز وجل في سبأ : « ذلك جزيناكم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور » ، وقال في أهل مكة كما روي عن ابن عباس : « وضرب الله مثلاً بقرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بانعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » . وقد ادب الله رسله المكرمين ، وانبياءه المعصومين بهذا الأدب فجعلهم حراساً على الشكر أباة للكفر لا يسهم جناح رحمة الا شكروا ، ولا تنزل بهم النائبات الا صبروا عليها ، وشكروا لله الهامهم الصبر وتمكينهم من الاحتمال . ولذلك قال عز وجل على لسان سليمان عليه السلام ، لما سخر له الريح والجن وعلمه منطق الطير والحيوان : « رب أوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت عليّ وعلى والديّ وان اعمل صالحاً ترضاه وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين » . ومن تمام الشكر لله وليّ كل نعمة ، والمبتدئ بكل احسان ، الشكر للمنع من الناس والقيام بمكافأته بما أمكن من قول وفعل . لان الله تبارك وتعالى نظم الشكر له بالشكر

الذي النعمة من خلقه ، و ابي ان يقبلها الا معاً لان احدهما  
 دليل على الآخر وموصول به ، فمن ضيّع شكر ذي نعمة  
 من الخلق فأمر الله ضيّع ، وبشهادته استخف . واقد جاء  
 بذلك الخبر عن الطاهر الصادق صلى الله عليه وسلم فقال :  
 من لم يشكر للناس لم يشكر لله . ولعمري ان ذلك لموجود  
 في الفطرة قائم في العقل ان من كفر نعم الخلق كان  
 لنعم الله اكفر ، لان الخلق يعطي بعضهم بعضاً بالكلفة  
 والمشقة وثقل العطية على القلوب ، والله يعطي بلا كلفة . وهذه  
 العلة جمع بين الشكر له والشكر لذوي النعم من خلقه .  
 وقد ادب رسول الله صلى الله عليه وسلم اصحابه بهذا  
 الادب وفقهم في هذا النحو من العلم ، فضرب لهم فيه  
 الامثال الرائعة ، وعلمهم فيه الحكمة البالغة . وقد روي عن  
 ابي هريرة رضي الله عنه انه قال : سمعت رسول الله صلى  
 الله عليه وسلم يقول : « ان ثلاثة من بني اسرائيل ابرص  
 واعمي واقرع بدا الله عز وجل ان يبتليهم فبعث اليهم  
 ملكاً فاتي الابرص فقال : اي شيء احب اليك ؟ قال لون  
 حسن وجلد حسن ، قد قدرني الناس . قال فمسّه فذهب عنه  
 فاعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً . فقال : اي المال احب اليك ؟  
 قال : الابل . فاعطي ناقة عشرآء ، فقال يبارك لك فيها . واتي  
 الاقرع فقال : اي شيء احب اليك ؟ فقال شعر حسن ويذهب  
 مني هذا ، قد قدرني الناس . قال فمسحه فذهب وأعطي شعراً  
 حسناً . قال : فاي المال احب اليك ؟ قال : البقر . قال فاعطاه



بقرة حاملاً وقال يبارك لك فيها . واتي الاعمى فقال أي شيء أحب اليك ؟ قال : يرده الله اليّ بصري فابصر به الناس . قال فمسحه فردّه الله اليه بصره . قال : فاي المال أحب اليك ؟ قال : الغنم ، فاعطاه شاة والدأ ، فانتج هذان وولد هذا فكان لهذا وادٍ من ابل ولهذا وادٍ من بقر ولهذا وادٍ من الغنم . ثم انه اتى الأبرص في صورته وهيئته فقال : رجل مسكين تقطعت بي الجبال في سفري فلا بلاغ اليوم الا بالله ثم بك ، أسألك بالذي اعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال ، بغيراً أتبلّغ عليه في سفري ، فقال له ان الحقوق كثيرة . فقال له كأني أعرفك ، ألم تكن أبرص يقدرك الناس فقيراً فاعطاك الله ؟ فقال : لقد ورثت لكابر عن كابر . فقال : ان كنت كاذباً فصيرك الله الى ما كنت . واتي الاقرع في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا . فرد عليه مثل ما رد عليه هذا . فقال : ان كنت كاذباً فصيرك الله الى ما كنت . واتي الاعمى في صورته فقال : رجل مسكين وابن سبيل وتقطعت بي الجبال في سفري فلا بلاغ اليوم الا بالله ثم بك ، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلّغ بها في سفري . فقال : كنت أعمى فردّه الله بصري وفقيراً فقد أغناني ، فخذ ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشيء اخذته الله . فقال : أمسك مالك فانما ابتليتم ، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبك .

والشاكرون للنعمة بعد ذلك يختلفون ، فمنهم من يرى

شكر المنعم من الناس حقاً يجب ان يؤدي ، ولكنه يؤدي  
على الكره والمشقة وتعرض النفس فيه لما لا تحب وتؤثر  
الا تتلقى النعمة من احد ، فلا تحتاج الى الشكر والاعتراف  
باليد المهداة . ولما أعان بعض المشركين ابا سفيان يوم أحد  
فأجابه من حنظلة بن ابي عامر ، وقد كاد حنظلة يقتله ، قال  
ابو سفيان :

ولو شئت نجيتي كميث طمرّة

ولم احمل النعماء لابن شعوب

أراد انه خيّر بين خزي الفرار ، وكان رئيس القوم ،  
وبين الصبر حتى انقذه ابن شعوب فاضطر الى ان يعرف  
له النعمة ويشكر له الصنيعة ، على ما في ذلك من المشقة  
والكلفة .

ومنهم من يرى في الشكر لذة ، وفي الكفر ألماً ، فهو  
ينأى بنفسه عن ألم الكفر وما يورث من نقص المروءة ،  
وهو يعنى في الشكر ، ويعالي بالنعمة التي أسديت اليه .

وقد قال العباس الصولي يشكر عمرو بن مسعدة :

سأشكر عمراً ما تراخت منيتي

ايادي لم تمن وان هي جلت

رأى خلتي من حيث يخفى مكانها

فكانت قدى عينيه حتى تولت

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه

ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

وقال بعض الحكماء : اذا استطاع الرجل الحر الا يدينه  
 احد بنعمة يسديها اليه او صنعة يصطنعها عنده فليفعل ، فان  
 شكر النعمة شيء لا يطيقه الا اولو العزم . وقال ازديشير :  
 الدين على ضربين احدهما يمكن اداؤه في غير زيادة ولا  
 نقص ، وهو دين المال الذي تقترضه من الذهب والفضة  
 والعروض ، والثاني لا سبيل الى ادائه مها تفعل ومها تبذل ،  
 وهو دين النعمة المسداة والصنعة المهداة لان المعاني لا تقوم  
 بالثمن ولا تحدد بالكيل والوزن والعدد . قال ابو اسحق  
 النظام : فاذا أديت الى دائنك ما اقرضك من ذهب او  
 فضة او عرض ، فقد أديت أخف الدينين حملاً وايسرهما  
 مؤونة ، وبقي في عنقك دين آخر لن تؤديه الا بالشكر  
 المتصل ، والوفاء الدائم ، والثناء الذي لا ينقضي . والهزل في  
 هذا الباب ، جعلت فداك ، متصل بالجد ، فحياة الناس في  
 جميع ابوابها والوانها قد وصل فيها الهزل بالجد ، والحق  
 بالباطل ، والحزامة الصارمة بالدعابة الحلوة والفكاهة المسلية .  
 وكان لنا صديق يُعرف بأبي الرمل لم أر أجمل منه  
 وجهاً ، ولا احسن منه منظراً ، ولا احلى منه حديثاً ،  
 ولا ازكى منه ذكاءً ، ولا أزكن منه زكاةً ، ولا انفذ  
 منه بصيرة ، ولا أدق منه فطنة ، ولا أصفى منه ذهنًا ،  
 وكان مع ذلك من اكفر الناس للنعمة ، وأجهدهم للصنعة ،  
 وأنسأهم للمعروف ، وأعقهم للصديق ، وأشدهم انكاراً لحق  
 الولي ، والتواءً بدين المحسن اليه . وقد سمعني ايام كنت

أملي علي اصحابنا فصولاً من كتاب الحيوان في الجن  
والعول وفي السعلاة والقفاريت وما قالت العرب في ذلك  
من الجسد والهزل ومن الصدق والكذب ومن الصحيح  
والمحال ، فكان يظهر الرضى بما يسمع والارتياح له . ثم  
اقتدناه اياماً ، فلما سألت عنه بعض اصحابنا أخبرت انه  
مريض قد ألزمته العلة داره ، فرأيت عيادته علي حقاً وزيارته  
من بعض ما تفرضه العشرة المتصلة والمخالطة الطويلة . فسمعت  
اليه مع اصحابنا ، فلم أكد أراه حتى انكرت من أمره كل  
شيء . فقد رأيت رجلاً غيرته العلة وأنهكه المرض ، حتى  
ذهبت نضرتة ، وذوت زهرته ، واستحال جماله قبحاً قبيحاً ،  
وصار الى شر ما كان يكره له الصديق ويتمنى له العدو . فلما  
سألته عن اصل علته ، قال : ويحك ابا عثمان عفا الله عنك  
وما اراه يفعل ، فأنت اصل علتي ومصدر بلائي ، وانت  
الذي جرّ عليّ المحنة وصبّ عليّ النقمة وملاً قلب الصديق -  
وما اقلهم - عليّ اشفاقاً ، وأفعم قلب العدو - وما اكثرهم -  
بي شباته ، فلولا ما حدثتنا به من اخبار الجان والقفاريت  
والغيلان والسعالى لما أصابني شر ، ولا نزل بي مكروه .  
قلت وما ذاك أبا الرمل ؟ قال لقد أطلت التفكير فيما  
سمعت منك ، واكثرت اعادته والحفظ له حتى شملت به  
عن كل لون من ألوان العلم ، وعن كل ضرب من ضروب  
المعرفة ، وعن كل فن من فنون الحكمة . ودفعت ذات  
يوم الى البادية لا اعرف لذلك سبباً الا اني كنت أحدث

نفسى باني قد التى فيها من الاعراب من يحدثني بمثل  
حديثك عن الجن والغول . واني لفي بعض الطريق في  
الصحراء وقد ارتفع الضحى وامتلأت الارض حراً ونوراً  
وتفرق الآل على الكشبان من بعيد ... واذا امرأة تعرض  
لي لم أر احسن منها حسناً ولا ابرع منها جمالاً ، ولا  
املح منها قدماً ، وقد اتخذت زي نساء البادية وتزينت  
بزينتهن ، فاسألها من هي فتنبئني ضاحكةً بانها هي التي  
خرجت التمس الحديث عنها . قلت مرتاعاً : يا هذه اوضحي  
ما تقولين ، فاني لا افهم عنك منذ اليوم ! قالت : الم تخرج  
ملتسماً لابناء الغول متبعاً لاحاديثها ؟ قلت : ومن انباك بذلك ؟  
قالت متضاحكة : ويحك ايها الرجل ! الم تعلم اننا نتصور فيما  
شاء الله من الصور ، وانا نخالط الناس فنسمع منهم ،  
وتحدث اليهم ونشاركهم فيما يأتون وما يدعون من الامر ،  
نراهم ان شئنا ولا يروننا ، ونسمعهم ان احببنا ولا  
يسمعوننا ، ثم ننصرف عنهم الى ديارنا والارض كلها لنا دار ،  
فاني قد سمعت من صاحبك مثل ما سمعت من اخبارنا  
واحاديثنا ، فانكرت منه ما انكرت ، وعرفت منه ما  
عرفت ، ورأيتك بهذا الحديث معنياً وله حافظاً وعليه مقبلاً ،  
فعلمت انك قد خلقت للجن والغول ، ولم تخلق للناس  
الذين تعيش معهم وتضطرب بينهم فازمتك مصباحاً ومسيماً ،  
ورافقتك غادياً ورائحاً ، وراقبتك يقظاناً وناثماً ، حتى اذا  
غدوت اليوم لما غدوت له رأيت ان قد بلغ الكتاب اجله

وانتهى امرك الى مدته وآن ان تبلغ ما انت ميسر له من  
عشرة الجن والغول ، فتراءيت لك ثم اقبلت عليك . ثم انا  
لن افارقك منذ اليوم فستكون لي رفيقاً ، سواء ارضيت  
عن ذلك ام سخطت عليه . وقد وليت عنها مديراً وعدت  
الى داري مسرعاً ، ولكنني لم اخط خطوة الا رأيتها تخطو  
معني مثلها وحديثها اليّ متصل لا ينقطع ، واذا هي تلامني  
لزوم الظل ، واذا هي تبلغ معني هذه الدار ، وتقوم بيني  
وبين اهلي وولدي ، لا اقول لهم شيئاً الا ردتّه علي ولا  
يقولون لي شيئاً الا ردت عليّ غيره ، ثم هي تتشكل لي  
في اشكال مختلفة وتتلون لي في الوان متباينة . فاذا احست  
مني انكاراً لبعض ما ارى من امرها قالت بصوت كانه  
صوت الشياطين :

فما تدوم على حال تكون بها

كما تلون في اوابها الغول

قال ابو الرمل : فانت كما ترى اصل علي ، والحق عليك  
ان تجد لي منها مخرجاً وتلمس لي منها شفاء . ولم يكذب  
يبلغ هذا الموضع من حديثه حتى ارتعنا جميعاً ، واخذنا خوف  
اي خوف ، فقد سمعنا صوتاً يأتي من بعض نواحي الحجرة  
نسمعه ولا نرى مصدره ، وهو يقول هيهات هيهات ابا الرمل  
لن يجد لك ابو عثمان من ضيقك مخرجاً ولن ينتهي بك من  
علتك الى شفاء الا ان تتغير نفسك فتصبح شاكرة للنعمة ،  
عارفة للصنيعه ، وهي قد فطرت على الكفر والجحود . وقد

خرجنا من عند ابي الرمل وليس منا الا من يتلو : « قل  
اعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس  
الخناس ، الذي يوسوس في صدور الناس ، من الجنة والناس » .  
قلت لصاحبي : اجادّ انت في اضافة هذا الكلام الى  
الجاحظ ؟ قال وهو يعرق في الضحك : ما اكثر ما اضاف  
الجاحظ الى الناس ما لم يقولوا فيما ينعني ان اضيف اليه  
ما لم يقل . . !

## رسالة الأمر والنهي

•

وقفك الله الى الخير والبر ، وعصمك من الشر والاثم ،  
وهداك الى الرشد المفضي بأهله الى الجنة ، ووقاك من الغي  
الموفي بأهله على النار ، وحبب اليك الحق الذي يملأ العقل  
نوراً وحكمة ، وكره اليك الباطل الذي يملأ القلب غروراً  
وجهالة ، وحملك على الجادة التي تنتهي بك في كل ما تعمل  
الى خير ما تحب لأمر المؤمنين من نصيح ولرعيته من  
العافية ، ولنفسك من النجح وارتفاع الذكر وبعد الصوت  
وقهر العدو والاستعلاء على الخصم .

فقد قال الله عز وجل « وعلى الله قصد السبيل ومنها  
جائر ولو شاء لهداكم اجمعين » .  
وصرف الله عنك سوء الظن فانه مفسد لصدق الاخاء



مكدر لسريرة الصديق ، منغص لذات النفس . وجعل الله موقع النصح الذي يقدمه اليك الصديق الحميم والمشير الامين حلواً في سمعك ، عذباً في قلبك ، حبيباً الى نفسك . فقد كان يقال لا يحسن بالوزير الناصح للملك والمشير الامين عند السلطان الا يقبل نصح اوليائه ان رفعوه اليه ، فانه ان اساء الظن بالناس اساء الناس الظن به وكان خليقاً ان يسوء به ظن السلطان .

وحدثني بعض اصحابنا من علماء الهند ان بيدبا الفيلسوف كان يقول لدبشليم الملك : ان علمت ان في بعض وزرائك استبداداً في الرأي واستكباراً على الاشارة وازوراراً عن نصح الناصحين فاعلم انه جدير الا يصدقك الرأي ولا يخلص لك في النصح ، فليس بناصح لك من لا ينتصح ، وليس بمخلص لك من يشك في اخلاص الناس له . ولا ينبغي ان تأمن من لا يأتمن الناس ، ولا ان تطمئن لمن لا يطمئن الى احد .

وكتب ارسططاليس صاحب المنطق الى اسكندر : لا خير في الصديق اذا لم يؤثرك على نفسه ، ولم يظهرك على دخيلة قلبه ، ولم ينصح لك في الغيب والشهادة . ولا خير فيه ان اصفاك بكل ذلك ولم يكن له صديق يقدم له من ذات نفسه مثل ما يقدم اليك . فان الرجل الذي يصادق من فوقه من ذوي الدرجات واصحاب المكاتة ولا يصادق من دونه من الاولياء والسوقة خليق ان يكون اثراً يجب نفسه ولا يجب

غيره ، ويبتغي بما يقدم اليك من النصيح والمشورة ان يستأثر  
بك من دون الاولياء ، وان يختص نفسه بما يجد عندك من  
معروف او سلطان .

جعلت فداك ، انما اكتب اليك ما اكتب من هذه  
الحكمة واسوق اليك ما اسوق من هذه الاحاديث . لأمر  
عرفته اليوم في الديوان ، فضاقت به نفسي ، وحزن له قلبي ،  
واسفقت عليك من عاقبته ، وكرهت لك مغيبته ، وخشيت ان  
يتجاوز الديوان الى مجالس الاشراف في قصورهم ، والقواد في  
جنودهم ، والعامه في انديتهم ومجالسهم ، فيتحدث الناس عنك  
بما لم يتحدثوا بمثله عن الوزراء من قبلك ، وتقنع في  
نفوسهم لك مهابة تقوم على الخوف والبغض ، ولا تقوم على  
المحبة والتجلة ، وشر ما يتعرض له اصحاب السلطان ان  
يهابهم الناس خوفاً ورهباً ، وخير ما يتاح لاصحاب السلطان  
ان يهابهم الناس حباً واكباراً ، وطمعاً فيما عندهم من الخير ،  
ورغبة فيما يجدون عندهم من البر والمعروف .

وقد كان كاتبك الحسن بن وهب يتحدث الى بعض  
اصفيائه وانا اسمع على غير علم منه بمكاني بان شعراً قدر رفع  
اليك فيه عيب لك ونقد لبعض عمالك ، فغضبت له وضقت به  
وأمرت بالبحث عن قائله لتذيقه غضبك وتصب عليه عذابك ،  
وتعلمه عاقبة طيشه ومغبة استخفافه بالسلطان واجترائه على  
الحكام . ثم لم يكفك ذلك ولم يقتنعك ، فامرت أعوانك من  
الكتاب والعمال ان يتقدموا الى اصحاب الشعر المنظوم

والكلام المنشور والى ذوي الاقلام المشرعة والالسنة المنطلقة  
ألا يذكروك فيم ينظمون من شعر او يكتبون من نثر  
او يديرون من حديث الا بالخير ، فان جنح منهم عن ذلك  
جانح او انحرف منهم عن ذلك منحرف فان السجن له مهياً  
والعقاب له مرصد ، والعذاب عليه محتوم . وهو خليق ان مسه  
الاذى ونزلت به العقوبة الا يذوق للعافية طعماً ، ولا يجد  
للحرية روحاً ، ولا ينعم ببقاء الاهل ومودة الصديق ونعمة  
الدعة ، حتى يخرج من هذه الحياة ملوماً مدحوراً .

جعلت فداك ، فاني لم اكد اسمع هذا الحديث يسرّه  
الحسن بن وهب الى بعض خاصته وذوي مودته فيبدم له  
حين يتحدث ، ويبسمون له حين يستمعون اليه ، وتظهر في  
وجهه ووجوههم آية الطاعة الساخرة والرهبة المستخفة ، حتى  
جزعت وفزعت ، وحتى ارتعت والتعت ، وحتى اسفقت عليه  
من امر تُعرف موارده وتوشك الا تُعرف مصادره ، وتبين  
اوله وتوشك الا تتبين آخره .

وهو بعد ذلك لم يتح لاحد من الناس منذ كانت هذه  
الامة ، وقامت هذه الدولة ، واستقر سلطان المسلمين في يثرب  
ايام الخلفاء الراشدين ، وفي دمشق ايام بني أمية ، وفي بغداد  
ايام بني العباس .

وما علمت اصلحك الله ان خليفة من الخلفاء او ملكاً  
من الملوك او وزيراً من الوزراء تقدم الى الناس بمثل ما  
تتقدم به اليهم ، وما علمت ان الناس استمعوا لمثل ذلك

او اذعنوا له او اطاعوه ، وقد همّ زياد ببعض ذلك فواعد  
وغلا في الوعيد ، وانذر واسرف في النذير ، وطلب الى  
الناس ان يكفوا عنه ايديهم والسنتهم ليكف عنهم يده  
ولسانه ، فصانعه من صانعه ، ونصح له من نصح ، وعارضه  
ابو بلال مرداس . فقال له : انك تحدثنا بغير ما يحدثنا به الله  
عزّ وجل ، تزعم انك ستأخذ البريء بذنب المسيء والله عز  
وجل يقول : ولا تزر وازرة وزر اخرى .

قال له ابو بلال ذلك في جماعة المسلمين والمسجد بهم  
ممتلىء ، وزياد على منبره لم يفارقه ، وعليه شارة الملك ، ومن  
حوله قوة السلطان . ثم انصرف ابو بلال مرداس لم ينله من  
زياد كيد ولم يمسه منه اذى . وقد كان لزياد ما علمت  
من القوة والبأس ، ومن العنف والبطش ، ومن اليد التي لم  
تكن تعرف القصر ، والسهام التي لم تكن تعرف الخطأ وإنما  
تسد فتصيب ، وترمي فتصمي .

فجعلت فداك ، وما زال الناس يعدّون على عبد الملك  
قوله حين جد الجد ، وعظم الخطب ، وانتشر الفساد في الاطراف  
وتفرق الناس شيعاً واصبح في كل جزيرة امير ومنبر ،  
« من قال لنا اتقوا الله ضربنا عنقه » ، يرون انه تحدث بما  
لم يكن له ان يتحدث به ، وتكثّر بما لم يكن يستطيع  
ان يبلغ من الامر ، وما اكثر ما قال الناس له اتق الله ،  
وما اقل ما ضرب من الاعناق . وما اعرف انه عاقب على  
مشورة او عذب في معارضة ، وإنما عاقب من شق عصا

المسلمين ، وخلع يداً من طاعة ، وفرق كلمة الامة .  
جعلت فداك ، ولو ان هذا الامر صدر عن امير المؤمنين  
أيده الله لما رضينا ذلك له ، ولا قبلنا ذلك منه ، وهو خليفة  
رسول الله وابن عمه والقائم على سلطان المسلمين ، اعطوه بيعته  
عن رضى ، ودانوا له بالطاعة عن ثقة ، فكيف بك وقد وليت  
الوزارة اليوم وقد يعزلك عنها امير المؤمنين غدا . وانت لا  
تحمي ماتمضي من الامر الا عن اذنه ورضاه ، فكيف بك  
اذا نلت احداً بأذى وكتمه عنه امير المؤمنين ، وكيف بك  
اذا القيت احداً في سجن وفتح بابه له امير المؤمنين ،  
وكيف بك اذا تقدمت في تعذيب هذا الشاعر او هذا  
الكتاب ثم سعى السعاة الى امير المؤمنين بانك تتهم بالظن ،  
وتأخذ بالريبة ، وتعاقب في غير تثبت ، وعفوا امير المؤمنين  
اوسع من سخطك ، ورحمة امير المؤمنين ، اوسع من تقمتك ،  
فماذا يقول الناس ان سخطت انت ورضي هو ، وعاقبت انت  
وعفا هو ؟ وعفوا امير المؤمنين لا يصدر عنه الا مصاحباً  
بالبر والنعمة ، فماذا يقول الناس اذا عاقبت انت وعفا  
امير المؤمنين ، ثم اتبع عفوه بالنعمة والجائزة ، وبالنائل والنافلة .  
الست خليفاً إذن ان تطلق السنة الناس فيك بما لا تحب ،  
وان تعرض سلطانك للضعف ، وعزك للسخرية .

جعلت فداك ، ان خير الوزراء من عرف لنفسه قدرها  
ولم يجاوز بسلطانه حده ، ولم يرفع نفسه الى اعلى من الموضع  
الذي وضعه فيه امير المؤمنين ، ولم يعرض نفسه بذلك

لانكار المنكر واحتجاج المحتج . واحذر جعلت فداك ان  
 يرقى الشك فيك الى قلب الخليفة فيظن بك تجاوز الحد ،  
 ويتهمك بانك تعطي نفسك من السلطان ما لم يعطك ، وتحولها  
 من القوة ما لم يحولك . وامير المؤمنين لم يتخذ الوزراء  
 ليبسطوا على الناس أيديهم بالاذى وليصبوا عليهم النعمة  
 صباً ، وانما اتخذ الوزراء ليشيعوا في الناس رحمته ونعمته  
 وينشروا فيهم بره وعدله ، ويرفعوا فيهم ذكره بالخير ، ويطلقوا  
 ألسنتهم بالثناء عليه ، ويملأوا قلوبهم بالحب له . والحب لا ينال  
 بالتسوة ، والنصح لا يكتسب بالظلم ، وليست اشاعة النعمة  
 وسيلة الى اكتساب الود ولا الى اصطفاء النفوس . فانظر  
 اصلحك الله في امرك وانصح لنفسك ولأمير المؤمنين . وانظر  
 بعد ذلك فيما بينك وبين الله من حساب تستطيع ان تجعله  
 يسيراً ان شئت ، وتستطيع ان تجعله عسيراً إن احببت .  
 واعلم جعلت فداك ان الزمان لا يثبت ، وانما هو منطلق  
 دائماً ، وان الايام لا تستقر ، وانما هو نهار يتبعه نهار ، والاحداث  
 في اثناء ذلك تحدث ، والخطوب في اثناء ذلك تلم ، والنوائب  
 في اثناء ذلك تنوب ، والوزراء يولون ويعزلون ، والحكام  
 ينصبون ويصرفون ، والدنيا تقبل وتدبر ، والحوادث تحلو وتمر ،  
 والرجل اللبيب من اعتبر بهذا كله فلم يسرف على نفسه ، ولم  
 يسرف على الناس ، ولم يقدم بين يديه من العمل ما يسوءه  
 في الدنيا ويخزيه في الآخرة . وقد أطلقت لسانك ، جعلت  
 فداك ، في ابن ابي دواد وتقدمت الى عمالك في ان يقولوا

فيه مثل ما تقول ، وفي ان يبثوا حواه الارصاد وينثروا عليه  
وعلى اصحابه العيون ، ويرفعوا اليك من أمره ما ظهر وما  
خفي ، وينقلوا اليك من حديثه وحديث أصحابه ما قالوا وما  
لم يقولوا . فكيف بك اذا دارت الدائرة ، وأملت الملمة ،  
ودعي ابن ابي دؤاد الى الوزارة ، وصُرفت أنت عنها ، وأمر  
فيك ابن ابي دؤاد غداً بمثل ما تأمر فيه أنت اليوم .

جعلت فداك ، إن كرام الناس ، وانت منهم ، يرفعون  
انفسهم عن الصغائر ، وينزهونها عن آثام القول والعمل ،  
ويكبرونها عن تتبع المفوات والتماس العثرات ، ويصمون  
آذانهم عن عيب العائنين ولوم اللائمين . ولعلمهم احياناً ان  
يسمعوا للوم والعيب اكثر مما يسمعون للحمد والثناء ،  
يجدون في اللوم والعيب ما يصلحون به انفسهم ، ويتقون به  
ضماؤهم ، ويقومون به اعمالهم ، ويجدون في الحمد والثناء تملقاً  
يدفع الى الغرور ويعري بالصلف ، وينجذع عما قد يكون في  
النفس من خصال السوء .

واني لأحب لك ان تلام فتعفو ، وان تعاب فتصفح  
اكثر مما احب لك ان تمدح فتعطي ، وان يثني عليك فتسكفيء  
على حسن الثناء .

وانت بعد ذلك لا تستطيع ان تعقل الالسنه المطلقة ،  
ولا ان تحطم الاقلام المشرعة ، ولا ان تمنع القلوب من  
الشعور والعقول من التفكير ، فدع الناس وما يشاؤون ان  
يقولوا فيك من الخير والشر ، ومن الحمد والذم ، وانتفع بذلك

كله في اصلاح نفسك وفي تجنب ما يشينك الى ما يزينك .  
واذكر قول الشاعر القديم :

اذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه الى ما تستطيع  
وكان بعض حكماء الروم يقول : اذا لم يكن ما تريد  
فأرد ما يكون .

جعلت فداك ، ان الله لم يعصم احداً من الخطأ ، ولم  
ينزه احداً من الزلل ، وإنما وهب الناس عقلاً يحسن مرة ،  
ويسيء أخرى ، ويخطيء حيناً ويصيب حيناً ، وجعل من الناس  
على الناس رقباء يدلونهم على مواضع الخطأ ومواطن الزلل .  
ولست بخير من عمر وقد قال عمر للناس : من رأى  
منكم فيّ اعوجاجاً فليقومه ! فقال له قائلهم : لو رأينا فيك  
اعوجاجاً لقومناه بسيفونا !

وقد لام الامتون عثمان ، فقبل اللوم ، واعتذر من الخطأ ،  
وتاب الى الله من السيئات . فما انت بخير من عمر ، وما أنت  
بخير من عثمان ، وما انت بخير من رسول الله ( صلى الله  
عليه وسلم ) وقد رضي ان ينصف من نفسه .

فأنصف من نفسك إذن ، ولا تكلفها ما لا تطيق ، وضعها  
حيث وضعها الله ، وحيث وضعها امير المؤمنين ، واذكر  
انك لم تكن امس شيئاً فأصبحت اليوم بفضل امير المؤمنين  
شيئاً مذكوراً .

فاشكر الله نعمته عليك ولأمير المؤمنين يده عندك .  
وبخير شكر لله ان تذيع في الناس العدل وتشيع فيهم الخير ،



وخير شكر لامين المؤمنين ان تُشعر الناس بحبه لهم ورفقه  
بهم ، وانهم عنده سواء .

وأنا اعلم ، جعلت فداك ، ان الحق مرّ وان النصح  
ثقيل ، وان الصدق بغيض إلى اصحاب السلطان . ولكنني  
أوثرك على نفسي واصفيك خالص ودي ، وقد علمت ما علمت  
فكتبت ما كتبت ، وانا مرسل اليك هذا الكتاب فمترجل  
الى البصرة لأقيم فيها بعيداً عن بغداد . فلأن اكون  
مغموراً في البصرة أحب إليّ من ان اكون مشهوراً معروفاً  
في بغداد .

ومضى الجاحظ في رسالته تلك الى محمد بن عبد الملك  
الزيات على ما تعود ان يمضي فيه من الاستطراد والتنقل  
بين ألوان الحديث ، ولكن وقت القاريء اضيق من أن  
أتمّ له هذه الرسالة .

## الوئابة والوئابة

هداك الله الى الرشء ، وجعلك الى الرشء هاءياً وللق  
ءاعياً . وءماك الله من الغى ، وجعلك من الغى ءامياً  
وعن الاثم ناهياً . وءلك الله على اءبر وجعلك على اءبر  
ءليلاً وبالبء كءيلاً ، وعصمك الله من الشر وجعلك من الشر  
عاصماً وللقنة ءاسماً . ووقاك الله سعى الساعىن بالاذى ،  
وءعاء الءاعىن الى القطىعة ، وإءءاف المرءفىن بالءءب ،  
واسرف المسرفىن فى الكىء ، ومشى الماشىن بالنمىة .  
فءء كان يقال ان صاءب القلب الءكى ، والءكم الراءء ،  
والبصىرة النافءة ، ءلىق ان يءءر الساعىن الىه بالناس ، وان  
يقءر انهم إن يسعوا الىه الءوم فءء يسعون به ءءا ، وإن  
يكىءوا ءصمه عنءه والاءام مقبلة علىه ، فءء يكىءون له

عند خصمه والايام مدبرة عنه . وكان يقال ان الدهر قلب  
وان الايام لا تؤمن ، وان الزمان كلفٌ بالصدر ، موكل  
بالمساءة ، يبسم ليعبس ، ويعبس ليبسم ! وكان يقال  
ان الرجل الحذر خليق ألا يؤتى من مأمنه ، وسبيله الى  
ذلك الا يطمئن الى الايام ولا يستريح الى الدهر ، وأن  
يستقبل النعماء مقدرًا أنها قد تزول عنه ، وان يستقبل  
البأساء مقدرًا انها الغمرات ثم ينجلين !

واذا كان الحزم للرجل اللبيب الا يأمن الايام ولا يطمئن  
الى الدهر ، فأحزمٌ من ذلك الا يأمن الناس ولا يستريح  
اليهم .. فهم يسعون الى الرجل ذي السلطان والبأس رغباً  
اليه او رهباً منه ، يلتمسون عنده الخير ، ويبتغون اليه  
الوسيلة ، ويسلكون اليه السبل حراساً على ان يخلو لهم  
وجهه ، ويصفو لهم وده ، ويخلص لهم ضميره ، فتغمرهم نعمته ،  
وتعدوهم نقمته ؛ وهم يعلمون ان صاحب السلطان والبأس لا  
بد له من ان ينعم ، فهم يحرصون على ان يستأثروا بانعامه ،  
ولا بد له من ان ينتقم ، فهم يجهدون في ان يصرفوا  
نقمته عن انفسهم . وهم في كل ذلك يطلبون الى صاحب  
السلطان والبأس اكثر مما يطلبون الى انفسهم ، ويأخذون  
منه أكثر مما يعطونه : يطلبون اليه ان يخلصهم بصفو نفسه  
وصدق وده وشامل معرفه ، ولا يعطونه من انفسهم الا  
الكدر والرئق ، ولا يمنحونه من ودهم الا التكلف والرياء ،  
ولا يهدون اليه من معروفهم الا تربص الدوائر به وانتهاز

الفرص فيه ، وانتظار اليوم الذي يتحولون فيه عنه الى من  
ينافسه ويناوئه . فهم يعرضون قلوبهم ونفوسهم وعقولهم  
وضمائرهم للبيع ، ويقبلون ما يعرض عليهم لها من ثمن . فاي  
الناس ارضاهم مالوا اليه ، وأي الناس قصر في ارضائهم  
انحرفوا عنه وتألبوا عليه !

ثم هم بعد ذلك لا يحفظون وداً ، ولا يراعون حرمة ،  
ولا يذكرون جميلاً . وانما يسرع النسيان الى قلوبهم فيمحو  
منها كل ذكرى ، ويلقي بينها وبين ما قدم اليهم من الخير  
والمعروف حجباً واستاراً . ثم هم بعد ذلك لا يكتفون  
بالنسيان ، ولا يقنعون بنكران الجميل وكفر النعمة ، وانما  
يضيفون شراً الى شر ، ونكراً الى نكر ، وجحوداً الى  
جحود . قد أقاموا حياتهم على الكذب ، واجروا سيرتهم  
على الرياء ، وطووا ضمائرهم على النفاق . فهم لا يستطيعون  
ان يعيشوا بانفسهم ، وانما يستمدون حياتهم من المنعمين  
عليهم ، المحسنين اليهم ، ومن المعتزين بهم ، والمنخدعين لهم . .  
فهم يتملقون من أتبع له السلطان ، يسعون اليه من كل  
سبيل ، ويسلكون اليه كل طريق ، يرقون اليه على أعناق  
سادتهم الذين أحسنوا اليهم ، وبروا بهم ، وغرروهم بالمعروف ؛  
لا يتخرجون من غدر ولا يتأثمون من نكر ؛ قد استجبوا  
المنافع العاجلة على المنافع الآجلة ، وآثروا المكر على  
الاخلاص ، والغدر على الوفاء . فخليق بصاحب السلطان ان  
يعرفهم حق معرفتهم ، وان يضعهم حيث وضعوا أنفسهم ،

وان يخشى ان يمكروا به كما مكروا بمن كان من قبله ،  
وان يتخذوه وسيلة الى التماس المنافع عند غيره كما اتخذوا  
من كان قبله وسيلة الى التماس المنافع عنده !  
وهذا الصنف من الناس - أيّدك الله - رذل الطبع ،  
موبوء القلب ، مدخول الضمير ، لا يحسب لشيء حساباً ، ولا  
يرجو لأحد وقاراً . لا يفرق بين خير وشر ، ولا يميز عرفاً  
من نكر ، وإنما الخير ما انتهى به الى ما يريد ، والشر ما  
حال بينه وبين ما يريد . وإنما العرف ما أداه الى غايته ،  
والنكر ما باعد بينه وبين غايته . فليس للفضيلة عنده وزن ،  
وليس للخلق الكريم في نفسه قدر . وهؤلاء الناس ينتهي  
بهم مراسهم للكيد وامعانهم في المكر الى ان يستعذبوا  
الاثم ويستحبوه ، والى ان يكذبوا حباً في الكذب ، ويشوا  
إيثاراً للوشاية . يجدون في ذلك رضى لنفوسهم التي لا ترضى  
الا بالشر ، ولا تنعم الا بالوقعة ، ولا تستريح الا الى  
الافساد بين الناس .

وقد أدّب الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم  
فأحسن تأديبه ، ونهاه ونهى المسلمين معه عن طاعة كل حلاف  
ميين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتئل بعد  
ذلك زميم ، فما أجدر المسلم الذي ينظر لأمر دينه كأنه يموت  
غداً ، ولأمر دنياه كأنه يعيش أبداً ، ان يتأدب بهذا الأدب  
الذي أدّب الله به الانبياء والصدّيقين ، والابرار الصالحين .  
والوشاية - جنبك الله شرها ، وعصمك من نكرها ، ورد

عك إذاها ، وصرف الى عدوك سَباها - تكون على ضروب  
مختلفة وألوان مفترقة . فمنها ما امتحن به نابغة بني ذبيان  
في قصر النعمان ، وذلك حيث يقول :

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً  
وليس وراء الله للمرء مذهبُ  
لئن كنتَ قد بَلَغتَ عني وشايةً  
لمبلغك الواشي أغشَّ واكذب

وحيث يقول :

أتاني ابيتَ اللعنَ انك لمتي  
وتلك التي تصطكَّ منها المسامعُ  
فبتَّ كأني ساورتي ضيالةً  
من الرُّقط في انيابها السم ناقع  
فانك كالليل الذي هو مدركي

وإن خلت ان المنتأى عنك واسع !

ومنها وشاية بين الصديق والصديق ، وبين الاليف والاليف  
تحوّل الصفا جفاء ، والمودة عداء ... ومنها الوشاية بين  
الحبيبين تلك التي قال فيها الشعراء فأجادوا وأحسنوا .  
والقول في شكوى المحبين من وشاية الوشاة وعذل  
العذال ورقابة الرقباء ، خليق ان يطول وتلتوي مذاهبه .  
ولكني - أيدك الله - لم اكتب اليك في ذلك ، ولم أرد  
ان أظهرك عليه . وإنما هو شيء عرض أثناء الحديث فألمت  
به إلاماً ... وأعود الى ما بدأت به من تحذيرك سعي الوشاة

اليك وسعي الوشاة بك ، فاذكرك - وما أنت في حاجة الى التذكرة - بما ترجم ابن المقفع في كليله ودمنة ، وبما روى الرواة عن ملوك العرب والعجم ، وبما قالت الحكماء في ذلك من بارع الموعظة وروائع الحكم . وانت - حفظك الله - حين تنظر في بعض ذلك خليك أن تستقبل أمرك بالحزم ، وان تقيم سيرتك على الحذر ، وان تسوس اصحابك بالتحفظ ، وألا تمضي من امرك ما تمضي ، ولا تدع منه ما تدع ، حتى تروى فتطيل الروية ، وتستبصر فتحسن الاستبصار .

ومن حقاك على نفسك ، ومن حق الناس عليك ، ان تهتم الذين يسعون اليك ، ويظفون بك . فان اتهام فريق من الناس والتثبت قبل الاستجابة الى ما يدعونك اليه ، خير لك وأسلم عاقبة من ظلم البريء والاساءة الى المحسن ، والاحسان الى المسيء والتجاوز عن المجرم . وقد أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه رضي الله عنهم ان يتثبتوا إن جاءهم فاسق نبأ ، مخافة ان يصيبوا قوماً بجهالة فينصبوا على ما فعلوا نادمين ! والله عز وجل قد وضع في اعناق العلماء ان ينصحووا للحكام فيخلصوا في النصيحة ، وان يعظوهم فيحسنوا الموعظة ، وان يذكروهم بآيات الله كلما تعرضوا لنسيانها او هموا ان يتحولوا عنها . ومن اجل هذا كتبت اليك ناصحاً لك اميناً في النصيحة ، وواعظاً لك مخلصاً في الموعظة ، ومحذراً لك من الله الذي

حدّر الناس نفسه ، ومذكراً لك بآيات الله الذي طلب  
اليهم ان يتذكروا آياته .

وما اجدر الذين يسوسون الناس ويدبرون امورهم  
ويقضون في انفسهم واموالهم ، ان يضعوا امامهم صحيفة  
يلقون عليها نظرهم بين حين وحين ، وقد كتبت فيها  
هاتان الآيتان الكرمتان من سورة الحجرات : « يا ايها  
الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً  
منهم ، ولا نساء من نساء عسى ان يكنّ خيراً منهن ،  
ولا تلمزوا انفسكم ولا تنازوا باللقاب ، بس الاسم الفسوق  
بعد الايمان ، ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون . يا ايها  
الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ،  
ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً . أحب احدكم أن  
يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله  
تواب رحيم . »

ذلك اخرى ان يعصمهم من المظالم وان ينزههم عن  
الكيد ، ويجنبهم كثيراً من الظن ، ويحملهم على ألا  
يأخذوا الناس بالشبهات .



## رِيَاسَةُ الْقُدْرَةِ وَالْفُرُوقِ

يسرك الله للخير ، ويسر الخير لك ، وصرفك الله عن الشر ، وصرف الشر عنك ، وذلك الله على الحق ، ودل الحق عليك ، وساقك الله الى الصواب ، وساق الصواب اليك ، واساع الله في قلبك الغبطة ، واسبع على نفسك البهجة ، وانزل على ضميرك السكينة ، وتقى دخيلتك من الموجدة والضعيفة وجعل ما ظهر من امرك بشراً ويمناً ، وما خفي من سررك دعة وأمناً ، ووطأ كنفك للصديق المقارب ، ومهد عفوك للعدو الجانب ، ورفع مكانك عن كيد الكائدين وحسد الحاسدين ، وخفض جناحك للاثنين بك واللاجئين اليك ، وثبتك على ما ركب في طبعك من اعطاء المحروم ، وإغاثة المهوف ، واعانة المحتاج ، وتعزية المتناع ، والأخذ

بيد الضعيف ، والتجاوز عن اساءة المسيء ، والاعراض عن  
جهل الجاهلين .

\*

بهذا كله ادعو لك حين الفاك وحين أنأى عنك ،  
وبهذا كله ادعو لنفسي حين اخلص لها خالياً اليها ، وحين  
أشغل عنها نافرأً منها ، فالله يشهد ما احببت لنفسي شيئاً  
الا احببت لك مثله او خيراً منه ، وما كرهت لنفسي او  
من نفسي شيئاً الا تميت ان يعصمك الله منه ، وينزهك عنه ،  
ويجنبك التورط فيه . فانت رفيق الصبا وصديق الشباب ،  
وأنت شقيق نفسي واليف قلبي ، والشريك في النعمة حين  
تُظَل ، والحليف على النائبة حين تنوب ، والمعين على الخطب  
حين يدلهم ، والظهير على الايام حين تحدث فيها الاحداث  
وتتعقد فيها المشكلات . فما نصحت لك قط ولا أشرت  
عليك ولا رفقت بك الا رأيتني لها ناصحاً . وعليها مشيراً ،  
وبها رفيقاً .

وما أعلم انك احتجت قط الى نصح الصديق ومشورة  
الخليل كما تحتاج اليهما الآن حين ارتفعت منزلتك عند اصحاب  
الشأن ، وألقي اليك الخطير من ازمة الحكم ، فطمع  
فيك الطامعون ، واشفق منك المشفقون ، وانعدت بك  
الآمال ، ولذت بك الاماني ، واصبحت من وفور  
النعمة وبسطة الجاه بحيث لا تستقبل النهار ولا تستقبل الليل  
ولا تعبر ساعة من ساعاتها او لحظة من لحظاتها الا فكر

فيك مفكر يريد ان يستظل بجناح من نعمتك او يتقي  
طائفاً من نعمتك ، فأنت المرجو الخوف ، وانت المحبب  
المبغض ، وأنت المرموق الموموق ، وأنت المغبوط المحسود .  
وإذا بلغ الانسان مثل ما بلغت من ارتفاع المنزلة وعلو  
المكانة وانبساط السلطان وامتداد القوة كان خليقاً ان  
ينأى بنفسه عن الغرور والتهيه ، ويبرئها من الصلف والكبرياء ،  
ويحميها من الاندفاع في الثقة والاعتداد بالحول والطول  
والاستغناء بالثراء والبأس ، ويذكر انه قد قوي بعد ضعف ،  
وأثرى بعد فقر ، واستغنى بعد احتياج ، وأن ضمائر الأيام  
تحفظ للناس من اسرار الغيب ما يحبون وما يكرهون ،  
وتدخر لهم من الاحداث ما يعرفون وما ينكرون . فمن  
اتيحت له القوة قد يقدر له الضعف ، ومن مكّن له في  
الارض قد تنبو به الدار ، ومن ابتسمت له الايام قد يعبس  
له الدهر . النعمة وديعة في ايدي اصحابها قد يطلبها من  
استودعهم إياها ، والقوة عارية في ايدي الاقوياء قد تؤخذ  
منهم لتردّ على الضعفاء . والله عز وجل يقول : « وتلك  
الايام نداؤها بين الناس » . وقد قال الشاعر القديم :

فيوم علينا ، ويوم لنا ويوم نساء ، ويوم نسر  
فأحذرك اول ما أحذرك ايها الاخ الصديق والخليل  
الشفيق ، الاعتداد بالنفس ، والاعتزاز بالحول والطول ،  
والانخداع بابتسامات الدهر ، فانها قد تصدقك اليوم لتكذبك  
غداً ، فاحذر نفسك اول ما تحذر ، وأشفق عليها منها قبل

أن تشفق عليها من الناس ، واذكر قول الله عز وجل في قصة يوسف عليه السلام : « وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء » فلا تنفذ لنفسك أمراً تتلقاه منها حتى تتدبره وتفكر فيه فتطيل التفكير . ومهما يواتك الحظ فاذكر حالك قبل ان يواتيك ، وقدّر أنك قد تعود إلى مثل ما كنت فيه ، واذكر رأيك في أصحاب الرأي قبل ان تكون منهم ، وتقدك لهم وحكمك عليهم قبل ان ترقى الى مكانك بينهم . واعلم ان الناس يقولون فيك مثل ما كنت تقول فيهم ، ويحكمون عليك بمثل ما كنت تحكم عليهم . واذكر في اول ما تذكر أن لك ضميراً يرضى ويسخط ، ويعرف وينكر ، ويحمد ويذم ، وان أعباء الحكم قد تشغلك عنه او تشغله عنك ، ما امتدت لك اسباب القوة . ولكنك ستفرغ له كما انه سيفرغ لك ، ذات يوم او ذات ليل ، فاحرص على ألا تسمع منه إلا خيراً .

\*

وأنت بعد ذلك محتاج إلى نصيح الصديق ومعوثة الخليل فيما أحدث الحكم بينك وبين الناس من صلوات ، فأنت تدبر أمورهم وترعى مرافقهم ، تسوسهم بالدين حيناً وتسوسهم بالشدة أحياناً . فأنت تطمع وتخيف ، وأنت تشيع الرغب وتشيع الرهب ، وأنت تمدّ أسباب الرجاء وترسل إلى القلوب صواعق اليأس . فالناس بين مبتغى اليك الوسيلة ، ومتربص بك الدائرة ، ومنتهمز فيك الفرصة . كلهم يُظهر لك المودة ،

واكثرهم يضرر الموجدة عليك ، ويطوي قلبه لك على شر  
ما تطوى عليه القلوب .

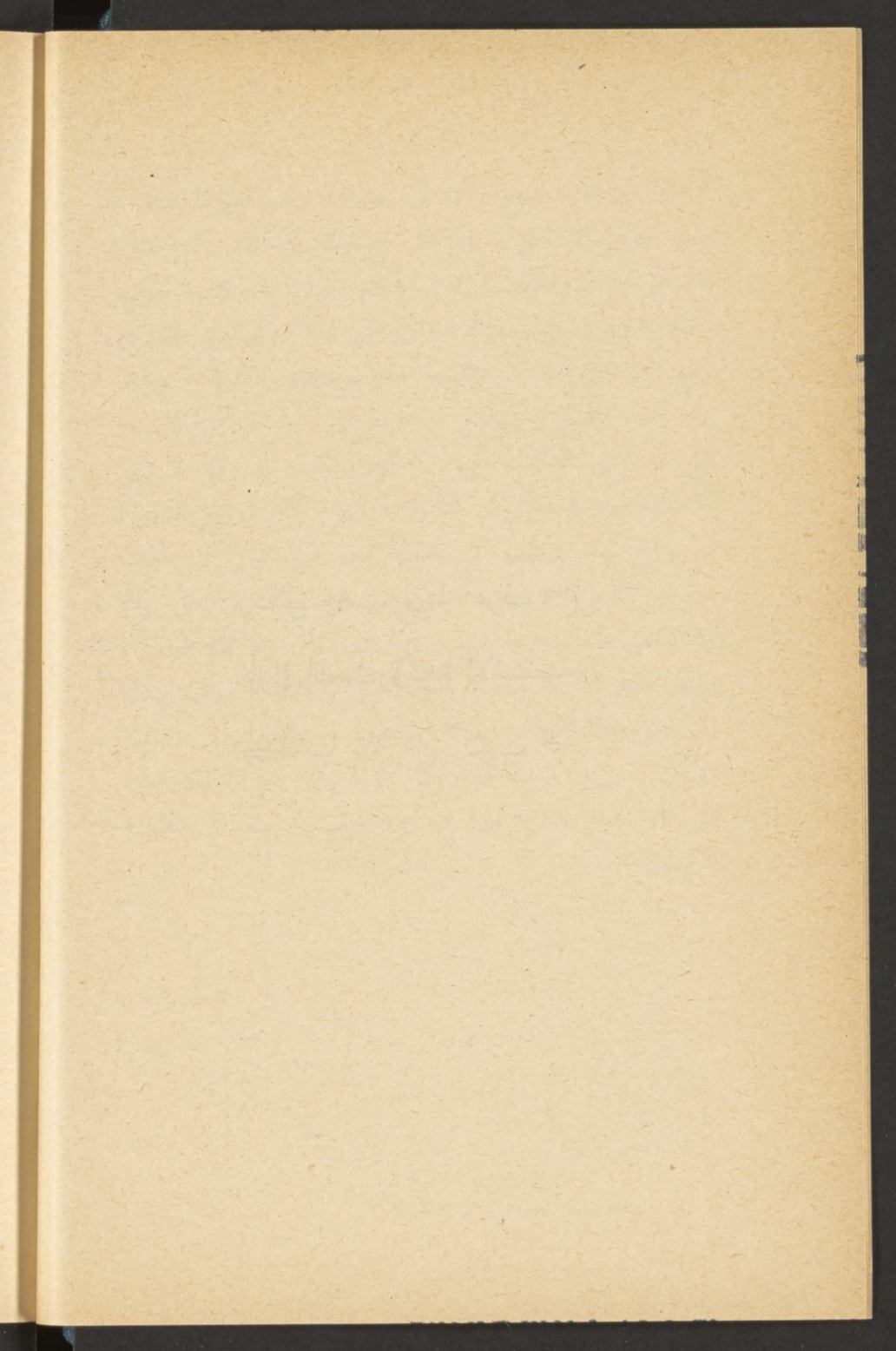
واخوف ما أخاف عليك من الناس : سعيهم عندك  
بالنميمة ، ومشيهم اليك بالوقية ، وابتغاؤهم رضاك بالوشاية .  
فالناس ينتغون الى الحاكم كل وسيلة ، ويتقربون اليه من  
كل سبيل . يتنافسون فيما عنده ، ويفريهم ذلك بان يكيد  
بعضهم لبعض ، ويمكر بعضهم ببعض ، ويتكذب بعضهم  
على بعض ، كلهم يريد ان ينال من الحكومة اكثر مما  
ينال غيره من النظراء ، وهم من اجل ذلك في همّ مقيم ،  
وتحاسد متصل ، وتباغض ملحّ ، يسعون الى آمالهم بما  
يستقيم من الطرق وما يعوج ، وبما يباح من السيرة وما  
يحظر ، وبما يحسن من القول والعمل وما يقبح ، يتبادلون  
المساءة فيما بينهم ولكنهم يحتصونك بشرّ ما يتبادلون من  
النكر والسوء ، ويفسدون قلبك على الناس فيفسدون قلوب  
الناس عليك ، ويسئثون رأيك فيهم فيسيئون رأيهم فيك .  
ثم ينتهون آخر الامر الى ان يفسدوا عليك امرك ، ويسئثوا  
رأيك في نفسك ، ويباعدوا بينك وبين ضميرك ، وينغصوا  
عليك راحة الليل ونشاط النهار .

\*

واذا وجب عليك ان تحذر نفسك وان تحذر الناس ،  
فقد يستبين لك ان الحكم نعمة لا نعمة ، ومحنة تثبلى بها  
النفوس ، وتفقت بها القلوب ، وتمحص بها الضمائر ، فهو

عناء لا راحة ، وهو شقاء لا سعادة ، وهو قلق لا هدوء ،  
وهو خوف لا أمن . واذكر اصلحك الله أيام كنا نلتقي  
فذكر فلاناً وفلاناً من الحكام الذين سبقوك ، نعيمهم  
كثيراً ، ونثني عليهم قليلاً ، ونرثي لهم دائماً ، ونتمنى للصديق  
منهم ان يجلي الله عنه الغمرة ، ويفرج عنه الكربة ، ويحط  
عنه اعباء الحكم وأوزاره ، ويرده الى الحياة الحرة السمحة  
التي لا يحمل الانسان فيها الا اوزار نفسه ، والتي لا يتقل  
الانسان نفسه فيها بأوزار الناس ، وما اكثر اوزار الناس !  
ولقد تبسم راضياً او ساخطاً حين تعلم اني اكتب اليك  
هذه الرسالة ، وفي نفسي من الحب لك والرفق بك  
والاشفاق عليك ، ما يحملني على ان اسأل الله لك العافية ،  
واقمني عليه ان يضع عنك إصر الحكم واغلاله ، وان يردك  
الي من هذه المحنة سالماً موفوراً ، وقانعاً من الغنيمة  
بالاياب . فخير غنيمة للحاكمين ان يخرجوا من الحكم اتقياء  
كما كانوا قبل ان يدخلوا فيه ، لم يغنموا منه إلا سلامة  
الاياب !

رسائل وقعت لي لم أعرف ، على  
طول البحث وشدة الاستقصاء ،  
كاتبها ولا من كتبت اليه .





## رَحَالَةٌ إِلَى ..

لست أدري كيف أدعوك ! فقد كنت فيما مضى من  
الايام أدعوك بالأخ العزيز والصديق الكريم ، وأنا أخشى ان  
اسوءك وان اسوء الحق إن دعوتك بهاتين الصفتين : احدهما  
أو كليهما .

أخشى ان اسوءك باثارة الحزن والأسى في نفسك  
وبأثارة الندم فيها ايضاً ، فأنت تعلم انك لم تبقَ لي أخاً  
عزيزاً لانك الغيت هذا الاخاء ، ولا صديقاً كريماً لانك  
قطعت اسباب هذه الصداقة . وقد يسوءك تذكيرك بما  
مضى ، وقد يحزنك ردك إلى ما سلف ، وقد يشق على  
نفسك ان تتبين ان لا سبيل إلى استدراك ما فات ، ولا  
إلى استئناف ما فرط ، فلأمرٍ ما أرسل القدماء مثلهم

المعروف : « سبق السيف العذل » .

وقد يثير الندم في نفسك أن تصدقك الذكرى بعد ان  
بعُد العهد ، وسكت الغضب ، ورضيت الاطعام ، وتغيرت  
الظروف ، فتنبئك بانك قد تجنيت في غير موضع للتجني ،  
وتكافت القطيعة في غير مُقتض لتكلفتها ، وأقدمت عليها  
حين كان كل شيء يدعوك إلى ان تحجم عنها وترفع نفسك  
عن إثمها ... !

نعم لست ادري كيف ادعوك ! فلست أريد أن  
أسوءك ، ولست أريد ان اسوء الحق ، فالحق يعلم انك كنت  
لي أحنأ عزيزاً وصديقاً كريماً ، ثم الغيت الاخاء الغاء ، ومحوت  
الصدقة محوآ . وما أحب ان ادعوك سيدي كما تعود الناس  
ان يدعوا من ليس بينهم وبينه صلة من مودة او إخاء ،  
فاني أشقّ على نفسي وأكلفتها اكثر مما تطيق إن دعوتك  
بهذا الاسم ، وقد أشقّ على شيء هو أكرم عليّ من نفسي  
وإن لم يكن عليك كريماً وهو الذكرى .

ولعلك لم تنسَ بعد ما كنا نتحدث به ايام الصفاء من  
انا قد بلغنا السن التي يحرص الناس فيها على الذكرى كما  
يحرصون على أنفس الكنوز لأنها خير من كل ما بقي لهم ،  
أو هي خير ما بقي لهم من حياة قد مضى اكثرها ولم  
يبق إلا أقلها ، وليس إلى استئنافها من سبيل .

وكنا نقول في ايام الصفاء تلك ، إنا قد بلغنا السن التي  
يحتفظ فيها الرجل الكريم بشئئين أشد الاحتفاظ ، ويحرص

عليها اعظم الحرص ، ويضن بها اكثر مما يضمن البخيل  
بماله ، وهما : الذكرى التي تستبقي له حياته او ما يمكن  
استبقاؤه من هذه الحياة ، والصدقة التي تصل بينه وبين  
الدنيا حين تتقطع الاسباب بينه وبين الدنيا كلما مرت ساعة  
من ليل او ساعة من نهار . وكنا نتواصى في ايام الصفاء  
تلك بان يخلو كل واحد منا الى نفسه ما استطاع ، فيستحضر  
الماضي كله ويعصره عصراً ليستخلص منه ما يستطيع ان  
يستخلصه من الذكرى وليسجله في كتاب حتى لا تعبت به  
الأحداث ، وحتى لا تذهب به الايام ، وحتى لا تمحوه هذه  
الشيخوخة التي تسرع الينا او نسرع اليها ، والتي تقني كل  
شيء فينا قليلاً قليلاً ، فكنا نريد ان نستخلص الذكرى  
من الأحداث والأيام والشيخوخة ونكرها على البقاء ، لأننا  
نجد العزاء كل العزاء في الرجوع اليها والاستماع لما تقصّ  
علينا من احاديث أنفسنا ، والاستماع باستحضار ما عملنا ،  
وما لا نستطيع ان نعمل .

وكنت أحبك أشد الحب ، وأوثرك على الناس جميعاً ،  
وأوثرك على نفسي قبل ان اوثرك على الناس . وكنت  
تجبنني أشد الحب ، وتوثرني على الناس جميعاً ، وتوثرني على  
نفسك قبل ان توثرني على الناس . وكان كل واحد منا  
حريصاً من أجل ذلك على ان يعرف من أمر صاحبه كل  
شيء .

كنت انت قد بلغت الثلاثين ، وكان بيني وبينها اعوام

قليلة حين التقينا وحين اصطفى كل واحد منا صاحبه على غيره من اللذات والأتراب . ومنذ ذلك الوقت لم يخف على احدنا من أمر صاحبه شيء . ولكن كلاً منا كان يجهل صبي صاحبه وشبابه ، وكان يحرص على ان يعرف صبي صاحبه وشبابه . وكنا نتواصى في اوقات الصفاء تلك بان نستقصي فنحسن الاستقصاء ، وبان نحصى فنتقن الاحصاء ، وبان نسأل الأهل عما كان من أمر طفولتنا حتى لا يفوت أحدنا من أمر صاحبه قليل او كثير . كان كل واحد منا حريصاً على ان يعمر قلبه بصورة من صاحبه كاملة الى اقصى ما يتاح للأشياء الانسانية من الكمال .

أتذكر هذا كاه ، ام نسيته كما نسيت كثيراً غيره من الأشياء ؟ اما انا فأذكره كما أذكر نفسي ، وأنعم به كما انعم بنفسى ، وأشقى به كما اشقى بنفسى ايضاً . فأنت تعلم ان الانسان المتفكر يجد في نفسه ينبوعين يفيض احدهما بالسعادة ، ويفيض ثانيها بالشقاء .

لم انس من هذا كله شيئاً ، ولن انسى من هذا كله شيئاً ، وسأنعم بهذا كله فأجد شقاء في هذا النعيم لأنه لا يزداد ولا ينمو ولا يتجدد ، وسأشقى بهذا كله فأجد نعيماً في هذا الشقاء لانه يستبقي لي سعادة قد بلوتها فحمدت بلاءها وما زلت أذوقها واحرص على استبقاء هذا المذاق .

كل هذا اقله لأني لا ادري كيف ادعوك ... فلست أخي العزيز ، ولست صديقي الكريم لأنك لا تريد ان تكون

هذا ولا ذاك ، ولست سيدي لاني لا اريد ان ادعوك بهذا  
اللفظ السخيف الفارغ الذي لا يدل على شيء . وما  
حاجتي إلى ان ادعوك ! وما حاجتك إلى هذا الدعاء ! وما  
ينبغي ان اكتب اليك دون ان ابدأ رسالتي بما تعود الناس  
ان يبدأوا به رسائلهم من هذه الألفاظ . إنك لتفهم عني  
وإن لم ادعك ، وإني لأوجه اليك القول وإن لم تسمع  
دعائي . وما حاجتي إلى ان ادعوك وأنا لن أرسل اليك  
هذا الكتاب في بيتك في القاهرة ، أو في مصيفك في  
الاسكندرية ، أو غيرها من مصايف مصر ، فلست أعرف  
ابن تصطاف ، وقد مضى زمن كنت أسأل فيه عنك في أي  
فصل من فصول السنة ، وفي أي شهر من شهورها ، وفي أي  
يوم من ايام الشهر ، وفي أي ساعة من ساعات اليوم ، فأعرف  
أين تكون . . . وأدلى سائلي على مكانك من دارك ، أو  
مكتبك ، أو ناديك ، أو ما شئت من هذه الاماكن التي  
كنت تضطرب بينها وتختلف اليها . فأما الآن فانا أجهل  
من أمرك كل شيء إلا هذه الانباء التي أقرأها في هذه  
الصحيفة أو تلك .

فأنت رجل تتحدث عنه الصحف فتكثر الحديث ، وتروي  
انباء فتحسن رواية الانباء . لا اعرف من أمرك إلا ما  
يعرفه كل قارئ للصحف ، ولا ألقاك إلا حين تفرض علينا  
ظروف الحياة ان نلتقي في هذا الحقل أو ذاك . وقد يقبل  
احدنا على صاحبه مكرهاً فيهدي اليه تحية فاترة ملؤها

الاستحياء او الاستخذاء، وفيها كثير من التعجل؛ وفيها  
كثير الرغبة في ان يطرأ طارئ او يقبل مقبل او يكون  
شيء من هذه الاشياء الكثيرة التي يفتوق لها الناس بعد  
اجتماع، ويشغل بها بعض الناس عن بعض في هذه المواطن  
التي يقوم الامر كله فيها على التكلف والتجمل والرياء. لا  
اعرف من امرك إلا ما يعرف الناس جميعاً، ولا ألقاك إلا  
كما يلتقى بعض الناس بعضاً في هذه الاجتماعات السخيفة  
البعيضة التي تسوء اكثر مما تسر وتغيظ اكثر مما ترضي،  
والتي لا أشهدها إلا رجعت منها بالسخط على نفسي وعلى  
الناس.

أندكر؟! لقد كنا نتحدث في ذلك فنطيل الحديث،  
نضحك منه كثيراً، ونحزن له كثيراً، ونسخر منه دائماً.  
لا اعرف من امرك إلا ما يعرف الناس جميعاً، ولا  
الفاك إلا في هذا الفصل الذي يلتقي الناس فيه حول مائدة  
من موائد الشاي او موائد الطعام. لا اسمع صوتك في  
التليفون قبل ان يرتفع الضحى، ولا اسمع صوتك في التليفون  
حين يتقدم الليل، ولا تسعدني زيارتك حين اقيم، ولا تؤنسني  
رسائلك حين اغترب. ومن اجل ذلك اكتب اليك دون  
ان اضع عنوانك على هذا الكتاب ودون ان أسلم هذا  
الكتاب إلى البريد، لانا فقدنا عادة المكاتبة، كما فقدنا عادة  
التزاور، وكما فقدنا عادة الحديث بالتليفون. وانا مع  
ذلك اكتب اليك وأسلم كتابي الى مجلة الهلال لاني واثق

بأنه سيصل اليك دون ان تعرف مجلة الهلال لمن اكتب او  
إلى من اسوق الحديث ! ودون أن يعرف أحد من قراء  
الهلال لمن اكتب وإلى من أسوق الحديث ، إلا انت ،  
فستعرف حق المعرفة لمن اكتب والى من اسوق الحديث .  
ستقرأ هذا الكتاب ما في ذلك شك ، لأنك تقرأ كل ما  
اكتب كما اقرأ أنا كل ما تكتب ، فأنت مريض بي كما اني  
مريض بك ، لا نلتقي ولا نتزاور ولا نتحدث ، ولكننا  
تصل على رغم هذا كله اتصالاً يشوبه الرضى حيناً ، ويشوبه  
السخط حيناً ، ويشوبه الحزن دائماً .

ستقرأ هذا الكتاب وستعلم انه موجه اليك ، وسترى  
نفسك فيه فتكرها اشد الانكار وتود لو تجهلها ولو تستطيع  
ان تفلت منها ، وستحاول ذلك ما وسعتك المحاولة ،  
ولكنك لن تبلغ من ذلك شيئاً .

فهنالك شيئان لا يستطيع الانسان ان يفلت منهما مهما  
يجهد ومهما يحاول ... لا يستطيع الانسان ان يفلت من  
نفسه ، ولا يستطيع الانسان ان يفلت من ملك ربه كما  
يقول ابو العلاء .

سترى نفسك في هذا الكتاب ، وستنكرها اشد الانكار ،  
وسيلذع الندم قلبك على ما اذعت من حق ، وما بددت من  
مودة كان يجب عليك ان تحتفظ بها ، ولكنك ستتكلف  
النسيان ، وستنسى احياناً ، وسيعود اليك الندم فيعذب قلبك  
عذاباً شديداً . انك تود لو تستطيع ان تصل ما انقطع

من الاسباب وتجمع ما تفرق من الشمل ، ولكنك ستجد بينك وبين هذا امدأ بعيداً لا سبيل إلى قطعه ، وهوة سحيقه لا سبيل الى عبورها . فالدواعي التي دفعتك إلى القطيعة ما زالت قائمة لم تمحها الظروف بعد ، وستمحوها الظروف من غير شك غدأ او بعد غد . ولكنك حينئذ ستستحي من التفكير في وصل ما قطعت من سبب ، وجمع ما فرقت من شمل ، وستؤثر الموت على العودة الى صديق قطعت اسباب وده طلباً للمنفعة ، وتهالكاً على اعراض الحياة ، ورغبة في الوصول إلى ما كانت نفسك تتقطع عليه حشرات .

لقد كنت تجهل نفسك جهلاً شديداً ، وما أرى إلا انك تجهل نفسك جهلاً شديداً وان كنت قد بلغت سن «الشيخ» . وليس عليك من ذلك بأس . فالحكمة التي كتبت على معبد «دلف» لم تكتب عبثاً ... طلبت الى الانسان ان يعرف نفسه بنفسه ، وقد اجتهد سقراط في ان يستجيب لهذه الحكمة ، وفي ان يعرف نفسه ، فلم يبلغ ما أراد . وما أحسبك أذكى قلباً ، ولا أمضى عزمياً ، ولا أشدّ جلدأ من سقراط .

لقد كنت تجهل نفسك . كنت ترى نفسك رجلاً خيراً مؤثراً ، فكشفت لك الايام عن رجل قد يكون خيراً ولكنه ليس من الايثار في شيء ، وإنما هو من الاثرة في كل شيء !



كنت ترى نفسك زاهداً في متاع الدنيا وأعراض الحياة ،  
فكشفت لك الايام عن رجل قد يرتفع بنفسه عن المتاع  
الديني والاعراض الخزية ولكنه يتبمع الثراء ما استطاع  
اليه سبيلاً ، واجاه ما وجد اليه مسلماً ، وغرور المنصب ما  
اتيح له هذا الغرور .. يؤثر هذا كله على كل شيء حتى  
على الوفاء ، وعلى كل انسان حتى على الاخ العزيز والصديق  
الكريم . انك « اديب » ولكنك تحب الادب السهل  
وتكره الادب العسير . ولم يكن شيء يغيظك في ايام الصفاء  
تلك كما كان يغيظك تحدثي اليك عن بعض آيات الادب  
الرفيع . كنت تراني اعيش في السحاب ، وكنت تطلب  
اليّ ان اهبط الى الارض ، وكنت تشكو اليّ ما اشقّ  
به عليك من هذه المعاني التي لم نألفها في شعر شعرائنا ونثر  
كتابنا ومن هذه الآمال التي لم نألفها في حياتنا المتواضعة  
الراكدة .

فدعني اشق عليك مرة اخرى ببعض هذا الادب الرفيع  
الذي كنت تضيق به اشد الضيق . وعلم الله ما كتبت  
اليك لاشقّ عليك ، ولكن هذا الادب الرفيع قد يُظهر  
الناس على نفوسهم احياناً ، وانا احب ان اظهرك على بعض  
نفسك لعلك تتذكر او تحشى ، ولعلك تستقبل ايامك بغير  
ما تعودت ان تستقبلها به الى الآن . اني اقرأ في قصة  
تمثيلية لشاعر يوناني لست في حاجة الى ان اسميه ، لان اسمه  
لن يدلك على شيء ، اقرأ في هذه القصة اليونانية حديث

أمّ الى ابنها، وقد لقيتهُ بعد نفي طويل .. فهي تسأله عن حياته في المنفى وتقول له فيما تقول : ألم يُعنك اصدقاء أهلك وهؤلاء الذين نزلت عليهم ضيفاً ؟ فيجبها : يجب ان يكون الانسان سعيداً ليجد مودة الاصدقاء ، فان الاصدقاء لا يُعنون عن الصديق البائس شيئاً .

واقراً في قصة فرنسية لكاتب لا اسميه ، لان اسمه لن يدلك على شيء ، ان الصداقة تقف الانسان عن ان يتقدم الى امام وقد ترجع به احياناً الى وراء . فمن الخير الا يستبقي الانسان صداقة تمنعه من الرقي الى ما يطمح الى تحقيقه من الآمال .

أرأيت لم يهجر الصديقُ الصديقَ ؟ أرأيت لم يعرض الخليل عن ود الخليل ؟ أرأيت لم قال الشاعر العربي القديم :  
غاض الوفاء وفاض الغدر وانفجرت

مسافة الخلف بين القول والعمل

\*

عد الان الى نفسك وسلها : متى رثت اسباب الود بينك وبينني ومتى انقطعت هذه الاسباب ؟ .. فستفهم كل شيء ، وستعرف من امر نفسك ما خفي عليك . والله يداول الايام بين الناس ، والارض تدور والظروف تتغير ، وسترى قوماً يالفونك الان ويتهاكون عليك كما يتهالك الذباب على الطعام الشهي . ستراهم حين يُتم الزمن دورة من دوراته ، وحين يبدل الله من قوم لقوم ، وحين تذهب ظروف

وتأتي مكانها ظروف اخرى وقد انصرفوا عنك كما انصرفت  
انت عن بعض الناس ، وتكبروا لك كما تكبرت انت  
لبعض الناس . فاذا مضت الايام استحيوا منك كما تستحي  
انت الآن من بعض الناس .

صدقني اني لا اعرف الرجل الكريم حقاً الا بخصلة واحدة ،  
هي ان يتجنب فيما بينه وبين الناس من صلة ، ما من شأنه  
ان يخزيه امام نفسه .. فالرجل الذي لا يخزي امام نفسه  
خليق الا يخزي امام الناس ، والرجل الذي يكره ان  
يستحي امام ضميره حين يُجنيه الليل ويسكن من حوله كل  
شيء خليق ان يتجنب ما يضطره الى ان يستحي من  
الناس .

صدقني إن نفوس الناس معادن ، ومن المعادن ما يعلوه  
الصدأ ، ومنها ما لا يجد الصدأ اليه سبيلاً . وكنت اتمنى  
ان تكون نفسك اصفى وانقى وأقوم وامتن من ان يعلوها  
الصدأ او تعبت بها الخطوب . ولكن لا بد مما ليس منه  
بد ، ولا سبيل الى اصلاح ما افسدت الايام .

\*

أفهمت الآن لم لم ارسلك كتابي اليك ؟ . . أفهمت  
الآن لم لم اعرف كيف أبدأ كتابي اليك ؟ وهناك شيء  
آخر أحب ان تفهمه فقد يكون في فهمك إياه بعض هذا  
العزاء الرخيص : لماذا كتبتُ هذا الكتاب ، وقد انقطعت  
الاسباب بينك وبينني ، ولماذا نشرتُ هذا الكتاب في

الهلل! لسبب يسير جداً وهو ان امثالك في الناس  
كثيرون بل اكثر جداً مما تظن ، فليس هذا الكتاب الا  
مرآة لن تكون أنت الشخص الوحيد الذي يرى نفسه فيها .

## قلب مفاتيح

لا تغضب ، فلم أُرِدْ الى إغضابك ، ولو قد اردت اليه  
لما استطعت ولا قدرت عليه ، فانت رجل متئد رزين ،  
شديد الوقار ، عظيم الحلم . لا يشبه حلمك بالبُرد كما كان  
يصنع ابو تمام ، لانه ليس حلماً حضرياً متوفاً ، وانما يشبه  
بثبات الصخر واستقرار الجبال كما كان يصنع الفرزدق ، لا  
لانه حلم بدوي ساذج كحلم قيس بن عاصم أو الاحنف بن  
قيس او معاوية بن ابي سفيان ، بل لانه حلم يأتي من هذا  
الحجاب الصفيق الذي ضرب بين قلبك وبين الاحداث  
والخطوب . فانت رجل لا تبلغك الأحداث ، ولا تصل  
اليك الخطوب . قد أتمت بينك وبين حياة الناس أستار  
كثاف ، وعشت انت من دون هذه الاستار مشغولاً بنفسك

عن كل شيء ، ومنصرفاً الى نفسك عن كل انسان . يستطيع  
الناس من حولك ان يرضوا ويسخطوا ، وان يثوروا  
ويهدأوا ، وان يأمنوا ويخافوا ، وان يتجهوا اليك ليشركوك  
في رضائهم وسخطهم ، وليقسموا لك حظاً من هدوئهم  
وثورتهم ، ولينعموا معك بالأمن ان أتيح لهم الامن ،  
وليستعينوا بك على الخوف ان سُلط عليهم الخوف ، ولكنهم  
لن يبلغوا من ذلك شيئاً ، لأنهم لن يستطيعوا ان يتجاوزوا  
ما أُلقي بينك وبينهم من حجب ، ولا ما أسدل بينك  
وبينهم من اِستار .

\*

إنما انت رجل مُحصَن ، لا يبلغه العدو ولا يصل اليه  
الصديق ، واكاد اعتقد ان ليس لك عدو ولا صديق .  
شغلت بنفسك حتى يئس الناس منك ، واعرض الناس عنك  
فلم يطمع فيك منهم طامع ، ولو قد فعل لما نال منك  
شيئاً ، ولم يعطف عليك منهم عاطف ، ولو قد فعل لما  
نالك منه شيء . والناس مع ذلك لا يرون شيئاً من هذا  
الحصن المؤشَّب الذي حصنت فيه نفسك ، ولا من هذه الِاستار  
الكثاف التي قامت بينك وبينهم ، ولا من هذه الِاستار  
المصباحاً ومسيماً ، ويلقونك غادياً ورائحاً ، يقولون لك فتمسح  
منهم ، وتقول لهم فيسمعون منك ، يجاذبونك هذه الِاطراف  
الرثة السخيفة التي يتجاذبها الناس حين يجيئون في البيئة

الواحدة ، ويخضعون للنظام الواحد ، ويشاركون في هذا العيش  
الذي يعيشه المتحضرون ، فأنت قريب منهم كأشد ما  
يكون القرب ، تمد اليهم يدك ويمدون اليك أيديهم ، ترد  
عليهم تحيتهم ويردون عليك تحيتك . وانت بعيد عنهم كأقصى  
ما يكون البعد ، تلقاهم وكأنما تحلم بلقائهم ، ويلقونك  
و كأنما يلقون ظلاً لك مستعاراً . بينك وبينهم أسباب  
مصنوعة وصلات متكلفة لا تبلغ النفس ولا تتصل بالقلب ،  
فهي لا تثير في عقلك تفكيراً ولا تثير في قلبك شعوراً ،  
لمكان هذا الحصن المؤشب الذي لا يُرى ، ولمكان هذه  
الاستار والحجب الكثاف التي لا تحس . وما ادري احاولت  
قط ان تعرف ام حاولوا هم قط ان يعرفوا طبيعة هذا  
الحصن المؤشب ، ومادة هذه الحجب والاستار الكثاف .  
ولكن انا قد حاولت ، وكتب لمحاولتي النجاح والتوفيق .  
وانا اكتب اليك لأعلمك من امر هذا الحصن ما لم تعلم ،  
واعرفك من امر هذه الحجب والاستار ما لم تعرف ، وما  
يعني ان تنتفع بهذا العلم او لا تنتفع ، وان تستفيد من  
هذه المعرفة او لا تستفيد . فلو قد اردت ان انفعك او  
افيدك لحصصتك بهذا الكتاب من دون الناس ، ولكنك  
ترى اني لم ارسله اليك ، وانما نشرته في الهلال لتقرأه انت  
او لا تقرأه ، وليقرأه غيرك من الناس على كل حال . فمن  
حق الناس ان يعلموا ان بينك وبينهم حصناً مؤشياً وحجباً  
صفاقاً واستاراً كثافاً ، وان ينظروا لأنفسهم أيطمعون

فيك وينتظرون منك الخير ، فيجب عليهم ان يحتالوا في  
اقتحام هذا الحصن ، وإزالة هذه الحجب ، وتمزيق هذه الاستار ،  
ام يستئسسون منك فيجب عليهم ان يخلوا بينك وبين هذه  
العزلة التي اخترتها او اختارتك ، وان يمضوا في طريقهم  
ويسعوا إلى غايتهم لا يشغلون انفسهم بك كما انك لا  
تشغل نفسك بهم .

\*

فما ينبغي ان يظل الناس من امرك في هذه الحيرة  
المتصلة ، يرونك واحداً منهم ويقدرون انك متضامن معهم  
في حمل اثقال الحياة والنهوض بأعبائها ، حتى اذا جد  
الجد افتقدوك فلم يجدوك ، واذا انت سراب يحسبه الظمان  
ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد عنده الحزن  
والياس وخيبة الامل وكذب الرجاء . انهم ينظرون  
فيرون غنى موفوراً ، ونعمة واسعة ، وعيشاً ليناً ، وثراء  
عريضاً ، وانهم يسمعون فيقع في آذانهم صوت عذب ممتلىء  
تشيع فيه القوة وتفيض منه الحرارة ، ويحمل الى قلوبهم  
ألفاظاً حلوة رائقة سائقة ، فيها كثير من امل ، وفيها كثير  
من وعد ، وفيها إحياء للطمع الميت ، وإيقاظ للطموح  
النائم ، وإشعار بان الناس قد خلقوا للتعاون والتضامن ،  
وليطاهر بعضهم بعضاً حين تنوب النوائب ، وليشد بعضهم  
أزر بعض حين تدلهم الخطوب . ولكنهم يستقبلون من  
المورهم ما يظلم وما يشرق ، وينهضون من اعمالهم بما



يخف وما يثقل ، ويلتمسونك ليستعينوا بك على تبيد  
الظلمة ، ويتهجوا معك بجمال النور المشرق ، ويستمتعوا معك  
بجمال الاعباء الخفاف في فرح ومرح ونشاط ، ويجهدوا  
معك بحمل الاعباء الثقال في صبر وأيد ، وحزم وثبات .  
يلتمسونك فلا يجدونك ، او هم يجدونك حين تشرق النعماء ،  
ويفقدونك حين تظلم البأساء . انت شريكهم في العيش  
الرضي والحياة المقبلة ، وانت ابعد الناس عنهم حين يغلظ  
العيش ، ويعظم البأس ، وتُدبر الحياة . تسرع اليهم حين  
ينعمون لتشارك في نعيمهم على ان ذلك حق لك لا ينبغي  
لاحد ان يردك عنه او ان يجادلك فيه ، ولعلك تأخذ من  
هذا النعيم - ان اتيج - بحظ اعظم من حظوظهم ، ولعلك تنظر  
اليهم وهم يأخذون بحظوظهم المتواضعة الضئيلة ، ساخطاً عليهم  
ضيقاً بهم ، مزدرياً لهم ، ترى انهم واغنون يشاركون فيما  
لا حق لهم ان يشاركوا فيه ، ويأخذون مما لا حق لهم  
ان يأخذوا منه ، ولعلك ان تردهم عن هذا النعيم إن  
استطعت لهم رداً ، وان تذودهم عن هذا الصفوان استطعت  
لهم زياداً . وانت على كل حال تنظر اليهم شزراً ، وتقسم  
معهم على مفض ، تستأثر من دونهم بالكثير ، وتحسد  
على ما يتاح لهم من القليل . فاذا ادبرت الدنيا ، وأظلمت  
الحياة ، واكتأب الامل ، وجد الجد ، والتمس الناس المعين على  
ما يلم بهم من شقاء وبأس ، آويت الى حصنك هذا  
المؤشَب ، والقيت من دونك هذه الحجب الصفاق ، واسدلت

بينك وبين الناس من الاستار الكثاف ، ونعمت بعزلتك  
نعمة هادئة مطمئنة ، لا ينغصها منظر البؤس ولا يكدرها  
صوت الشكاة ، ولا يشوبها تفكير في البائسين ، سواء منهم  
من احتمل البؤس صامتاً صابراً جلدأ ، ومن احتمل البؤس  
صائحاً صاخباً شاكياً الى الله والى الناس .

ما طبيعة هذا الحصن المؤشب ، وما مادة هذه الحجب  
والاستار ؟ وكيف السبيل الى ان يخرجك الناس من  
عزلتك هذه الراضية ، لتسعد معهم اذا سعدوا ، وتشقى  
معهم اذا شقوا ، وتشاركهم في استقبال الحياة حين تشرق  
وحين تظلم ؟

هذه هي المسألة التي حاولت ان اجد لها حلاً ، وأتيسر  
لمحاولتي هذه شيء من التوفيق .

إنَّ حصنك هذا المؤشب يا سيدي ، ليس الا  
قلبك المتقل الذي لا ينفذ اليه شعور بالتضامن او  
حاجة الى التعاون ، والذي لا تصل اليه رحمة حين  
يحتاج الناس الى الرحمة ، ولا رفق حين يحتاج الناس  
الى الرفق ، ولا رثاء حين يحتاج الناس الى الرثاء . إنه  
قلب قد صور من صخر مجوف تستطيع ان تودعه كل ما  
سئت من امل لا حد له ، وطمع لا ينتهي الى غاية ،  
وجشع بشع ليس له قرار ، وشهوات جامحة لا سبيل الى  
ضبطها ، وطموح لا يحده الا الموت ، ولكنه على ذلك  
مقل مصمت من جميع جوانبه ، لا ينفذ الى داخله أيسر

الضوء ولا ارق النسيم ، ولا سبيل الى تحطيمه لانه اقسى  
واصلب من ان تبلغ منه المعاول . فهو كالحجارة او اشد  
قسوة ، وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار ، وان  
منها لما يشقق فيخرج منه الماء . ولكن قلبك لا يتفجر منه  
نهر يفيض على الناس برحمة او برّ او مودة او إخاء ،  
ولكن قلبك لا ينشق فتخرج منه قطرة تروي ظمأ الظامء  
او تحفف من لوعة المكروب ، قد صور من صخر صلب  
صلد مصمت من جميع جوانبه . ولم يكفك ما فطر عليه  
من صلابة وصلادة وإصمات ، فوضعت عليه قفلاً لا أدري  
اقصدت به الى الاغراق في التحفظ والاحتياط ، ام قصدت  
به الى التأنق والزينة وكيد الحسود ، فهو قفل رشيق  
أنيق ، تراه العين فتمتلىء النفس له إكباراً واعظاماً ،  
وتمتلىء القلب به اعجاباً ، وتتقطع الافئدة له حسرات .  
قفل من ذهب نزار ترصعه ضروب الجوهر والاحجار الكريمة  
النادرة ، قد صاغته لك الايام في كرّها والليالي في مرّها ،  
فأنت به معجب ، وله مكبر ، وعليه حريص ، وانت به  
مفاخر ، حيناً تظهره حتى يملأ النفوس حسداً وحقداً ، وانت  
به ضنين تخفيه حيناً حتى تتقطع القلوب تشوقاً اليه وتفكيراً  
فيه ، وانت في داخل هذا القلب الصلب الصلد المصمت ذي  
القفل الذهبي المرصع ، هادىء لا تحس اضطراب من حولك  
من الناس ، وادع لا تسمع اصطخاب من حولك من  
البائسين ، قد انمضت عينيك فلا ترى ما يسوءك ، وقد

سددت اذنيك فلا تسمع ما يؤذيك ، وقد الغيت حواسك  
كلها او سخرتها لهواك فلا تحمل اليك الا ما تحب ، وانت  
قد تفتح عينيك واذنيك وترهف حسك ، فترى وكأنك  
لا ترى ، وتسمع وكأنك لا تسمع ، وتجهد غلظ  
الحياة وقسوتها وكأنك لا تجد شيئاً . قد حصت نفسك  
بهذا التلب الصخري الصلب الصلد الذي لا تعمل فيه  
الماول ولا ينفذ منه الضوء او النسيم ، وقد وضعت عليه  
هذا الثقل الذهبي المرصع لتملأ القلوب الاخرى ، التي لم  
تصوّر من صخر ، وإنما صورت من لحم ودم ، حزناً ويأساً  
وحقداً وحسداً . وانت تنظر الى هذه القلوب التي يحرقها  
الحزن وتمزقها الحسرات في كثير جداً من التعالي والكبرياء ،  
وفي كثير جداً من الاحتقار والازدراء . ولعلك تنعم بما  
ترى من الشر ، ولعلك تسعد بما ترى من البؤس ، ولعلك  
تقول لنفسك حين تتحدث إلى نفسك ، وما أقل ما تتحدث  
الى نفسك ، لقد صرف عني هذا الشر وعدل عني بهذا  
البؤس ، واريد ان أحيا هذه الحياة الحلوة التي تشتق  
حلاوتها مما يحيط بها من مرارة ، اللينة التي يُستخلص لينها  
مما يحيط بها من شدة ، الناعمة التي يُستصفى نعيمها مما يحيط  
بها من البأساء .

فلأنعم ما دام قد كتب لي النعيم ، ولاسعد ما دامت  
قد اتحت لي السعادة ، وليبتئس غيري وليشق ما دام قد  
كتب علي غيري البؤس والشقاء .

\*

حدثني ، أليست هذه دخيلة نفسك حين تخلو اليها ، إن خلوت اليها ، وحين تشغل عنها بما تستمتع به من لذة وبما تجمع من ثروة وبما تحقق من فوز ؟

أليست هذه دخيلة نفسك التي لا تتخرج من ان تصارح بها حين يجري الحديث بينك وبين نظرائك ، عما يملأ الارض من بؤس وبغض وسقاء ؟ بلى هذه دخيلة نفسك تخفيها كثيراً وتظهرها قليلاً وتشغل عنها بلذتك وثروتك في اكثر الاحيان ، ولكن انظر ، انك ترى في الارض انهاراً تجري وينابيع تفيض ، وانك تستغل هذه الانهار الجارية وهذه الينابيع المتدفقة لتمتع في لذاتك وتريد الى ثرائك ثراء ، فهل علمت كيف تفجرت هذه الانهار ؟ وهل علمت كيف انشقت الارض عن هذه الينابيع ؟ وهل علمت ان قلبك ، مهما يكن حظه من الصلابة والصلادة ومن الأصمات والقسوة ، لن يستطيع ان يقاوم الاحداث ، ولا ان يثبت للخطوب ، ولا ان يحتفظ بهذا القفل الذهبي المرصع الذي علقته او علقته لك الايام عليه ؟

\*

ان الحوادث والخطوب تعبت بالقلوب مهما تكن قسوتها ومهما تكن اقفالها . وان ساعة من الدهر تأتي على هذه القلوب الصلبة الصلدة المصمتة القاسية فتذيبها ، او تحيلها هباء تذرره الرياح . انظر ، لقد كانت قلبك قلوب صلبة صلدة

مقفلة قد احتبست من ألوان الذة والاثم ، ومن ضروب  
الطمع والجشع ، ومن خصال الاثرة والبخل ، ما لا يحصى  
ولا يوصف . ثم أتت عليها هذه الساعة من ساعات الدهر  
فذهبت بها وباصحابها . وهذه الساعة آتية عليك وعلى  
قلبك فذاهبة بك وبقلبك إلى حيث يذهب الناس ثم  
لا يرجعون .

صدقني ان من الخير لك ولمن حولك من الناس ان  
تحدث في قلبك هذا المصمت المقفل صدعاً يسيراً ينفذ منه  
الضوء ليبدد بعض ما فيه من ظلمة ، وينفذ منه النسيم  
ليطفيء بعض ما فيه من لظى . وصدقني ان من الخير  
الكثير لك ولغيرك من الناس ان تدير مقفلك الذهبي في  
قفلك هذا المرصع ، وان تفتح قلبك ولو قليلاً ليصل اليه  
بعض ما في هذا العالم مما يثير الرحمة ، ويشيع الرفق ،  
ويعطف بعض الناس على بعض .

\*

صدقني ان من الخير الكثير لك ولغيرك ان تصدع  
قلبك قبل ان تصدعه الاحداث ، وان تفتح قلبك قبل ان  
تفتح الخطوب ، وان تشعر من حولك من الناس بانك تجد  
بعض ما يجدون ، وتعتقد مثل ما يعتقدون . انك مثلهم قد  
خلقت من تراب وستعود الى التراب ، وان الذين يستوون  
قبل ان يدخلوا الحياة ويستوون بعد ان يخرجوا من الحياة  
ليسوا في حاجة الى ان يمايز بعضهم من بعض ، ويبغي

بعضهم على بعض ، في هذه الطريق القصيرة التي يسلكونها  
بين المهود واللحود .

## من بيده

لست أدري ما سؤالك عن هؤلاء النفر من اصدقائنا  
القدماء ، الا ان تكون نفسك في حاجة الى شيء من الألم  
بعد ان أغرقت في اللذة ، والى شيء من الحزن بعد ان  
أسرف عليها السرور . فانت رجل قد اتحت لك الحياة  
النائية الراضية ، وقضت لك الاقدار ان تستقبل النهار معتبطاً ،  
حين يشرق نوره ، وتستقبل الليل مبتهجاً حين تدلهم ظلمته ،  
وتتفق ما بين اسفار الصبح واطلام الليل في عمل هادىء  
مريح ، وتتفق ما بين مغرب الشمس وانتصاف الليل في  
فنون من اللذات تملأ النفوس بشراً ، والقلوب حبوراً .  
وكل شيء منته الى السأم اذا اتصل ، حتى الحياة الراضية ،  
والنعمة السابغة ، والعيش الهادىء المطمئن ، فلست انكر



منك ان تملّ هذا النعيم المقيم ، وتطمع في الترفيه على نفسك ،  
بقليل من البؤس يأتيك من بعيد ، وفضل من الحزن يعبر  
اليك البحر ، ويبلغ نفسك الوادعة الهادئة ، كأنه الصدى  
الضئيل النحيل ، والناس يرفهون على انفسهم كما يستطيعون ،  
والله يقسم الحظوظ بينهم كما يريد .

قوم يتعزون عن النعيم المقيم ، واللذة الملحة ، بالحزن  
الطارىء ، والألم الملمّ . وقوم يتعزون عن الشقاء المتصل ،  
والبؤس اللازم ، بالنسمات الخفاف اللطاف ، يتسمونها من  
الشمال والجنوب ، ان اتيح لهم ان يتلقوا نسيم الشمال  
او نسيم الجنوب . وفيك والحمد لله جرح وجروح ،  
واعوجاج والتواء ، وانحراف عن الجادة حين يطول  
عليك السير في الجادة ، وطموح الى الشرّ حين تتصل  
عليك صحبة الخير ، ورغبة في البؤس حين يثقل عليك  
اتصال النعيم . وعلل نفسك ان شئت بما شئت ، فقل انك  
غريب تريد ان تتصل بذوي مودتك ، وتتعرف من انبائهم  
ما يخفف عليك ثقل الغربة ، وقل انك وفيّ لا تنسى  
الصديق ، وقل انك امين لا تجحد حقوق الاخوان ، وقل  
انك مؤثر لا تريد ان تنفرد بالسعادة والغبطة ، وان تشغل  
بنفسك في حياتك الجديدة الناعمة ، عن الذين شاركوك في  
حياتك القديمة البائسة . قل ما شئت من ذلك فقد يصدقك  
غيري من الناس . فاما انا فقد عرفتك حق المعرفة ، وبلوت  
من سيرتك ، واخلاقك ، ومن طبعك ، ومزاجك ، ما

يعصمني من الخطأ في تقدير ما يصدر عنك ، من قول او عمل .

لست غريباً يسأل عن الصديق ليخفف عن نفسه ثقل  
الغربة ، ولست وفيّاً يسأل عن الصديق ليرهم ويسرهم  
ويؤذنهم بانه لم ينسهم ولن ينساهم . ولست مؤثراً  
يسأل عن الصديق ليشعرهم بانه لا يريد ان ينفرد من  
دونهم ، بما أُتيح له من الطيبات ، وانما انت رجل قلق  
لا يستقر على حال ، سوؤوم لا يطمئن الى لون من العيش ،  
طُلعة لا يستطيع ان يعيش الا اذا اظهرته الايام على جديد  
من الامر ، وانت بعد هذا كله اُثرٌ لا تستمتع بالنعمة التي  
تتاح لك ، الا اذا عرفت النعمة التي تُصب على غيرك ،  
ولا تسيف اللذة التي تسعى اليك الا اذا استيقنت ان قوماً  
غيرك يتجرعون من الألم غصصاً ، ويلقون منه اهوالات .

\*

ولقد قرأت كتابك فسرني وساءني ، وفي كل شيء يأتي  
منك ما يسرّ وما يسوء . سرني من كتابك انك طيب  
النفس ، قدير العين ، رضي البال ، ولست مثلك احسد  
الصديق على ما يتاح لهم من الخير . وسرني من كتابك  
هذه السداجة الظاهرة ، التي تشير الابتسام ، وتبعث  
الضحك ، وتدعو الى التأمل والتفكير . وساءني من كتابك  
انك ماكر تتكلف السداجة ، وغادر تتضع الوفاء ،  
وخبيث الطوية تتعمل طيبة النفس ، وواثق بنفسك الى

ابعد حدود الثقة ، تظن انك وحدك الماهر الماكر ، وان  
غيرك من الذين تكتب اليهم أغرار محمقون ، لا يفهمون  
ما تضرر ، ولا يفتنون لما تريد .  
وما اريد ان أغير من اخلاقك شيئاً ، فليس الى تغيير  
اخلاقك من سبيل ، ولو تغيرت اخلاقك لضقت بك ،  
وزهدت فيك ، ورغبت عنك ، فأنت كما انت تعجبني  
وترضيني ، لانك معقد النفس ، وانا احب النفوس المعقدة ،  
اجد اللذة كل اللذة في حلّ تعقيدها ، وكشف ما يصدر  
عنها من الرموز والالغاز . وقد احب النفوس السمجة  
اليسيرة ، وأكف بما يصدر عنها من الكتب الواضحة  
الصريحة ، التي تصدر عن القلوب ، لتصل الى القلوب ،  
والتي تمؤها العواطف الحادة ، ويشيخ فيها الشعور الدقيق ،  
لتثير العواطف الحادة ، وتفيض الشعور الدقيق ، وتتيح  
لقلوب والنفوس ، ان يتصل بعضها ببعض ، في غير  
مشقة ، ولا جهد ولا عناء ، ولكنني على ذلك ، لا اكره  
النفوس الملتوية المعقدة ، التي تقول وتريد غير ما تقول ،  
وتعمل وتقصد الى غير ما تعمل ، وتدعو الناس الى ان  
يفكروا فيطيلوا التفكير ، والى ان يرووا فيمعنوا في  
الروية ، ليفهموا ما يصدر عنها من قول او عمل . فعدّ  
نفسك ما وسعك تعقيدها ، والتو بقلبك ما استطعت الى  
الالتواء به سبيلاً ، واكتب اليّ عن هذه النفس المعقدة ،  
وعن هذا القلب الملتوي ، ما شئت من الرموز والالغاز ،

قاني موكل بكل الرموز وفك الالغاز .  
وما اريد بعد هذا ان ابخل عليك بما طلبت اليّ من  
انباء هؤلاء النفر من اصدقائنا القدماء ، فهم على خير ما  
تحب لهم نفسك المعقدة ، وقلبك الملتوي ، وهم على شر ما  
تكره نفوسنا السمحة ، وقلوبنا المستقيمة ، من الاحوال .  
قد رفعتهم اعراض الحياة الى ارقى الدرجات ، وانحطت  
بهم حقائقها الى الدرك الاسفل من الضعة فهم سادة قادة ،  
يدبّرون ، ويقدرّون ، ويأمرّون ، وينهون ، وينفعون ،  
ويضرون . وهم عبيد ارقاء ، يملكون من امور الناس  
كثيراً ، ولا يملكون من امور انفسهم شيئاً .

\*

ولست ادري ، أنت كما عرفتك ، محب للقراءة ،  
منوع لما تقرأ ، ام انت قد شغلت بحياتك الجديدة ، عن  
القراءة وتنويعها ؟ ولست ادري أقرأت قصة ذلك الفتى  
الذي افاق من نومه ذات صباح ، فاذا هو قد مسخ حشرة  
بشعة قدرة كأبشع ما تكون الحشرات واقدرها ،  
ولكنه احتفظ على ذلك بحظ من عقل ، فهو يعرف ما  
صار اليه أمره ، ويشقى به شقاء بغيضاً ، وهو يلقي اهله  
بعد جهد ، فاذا هم محزونون عليه ، منكرون له ، ضائقون  
به ، وهو يلقي الناس الذين يلمون بأهله بين حين وحين ،  
فاذا هم نافرون منه اشد النفور ، مبغضون لمنظره اشد  
البغض ، وهو يعلم هذا كله ، فتأذى به نفسه ، ويشقى

به شقاء لا حد له ، وما تزال الخطوب تختلف عليه ،  
والاحداث تؤذيه في جسده البشع ، ونفسه البائسة حتى  
يستأثر به الموت ذات يوم ، وقد هان على اهله ، وعلى  
غيرهم من الناس فلم يحفل به حافل ، ولم يلتفت اليه  
ملتفت ، وانما كان موته فرجاً من حرج ، وسعة من ضيق .

\*

ان لم تكن قد قرأت هذه القصة فاقراها ، واستحضر  
اثناء قراءتها شؤون مواطنيك عامة ، وشؤون هؤلاء النفر  
من الاصدقاء القدماء خاصة ، فسترى في كثير من  
الحزن إن كنت خبيراً ، وفي كثير من الرضى  
ان كنت شريراً ، ان كاتب هذه القصة كانا كان ينظر الى  
مواطنيك ، والى هؤلاء النفر من اصدقائك ، ويستلمهم قصته  
هذه البشعة المروعة ، فكل شيء في حياتنا يذكر بالمشخ ،  
ويلفت اليه ، ويدعو الى اطالة التفكير فيه . أتذكر ان وطنك  
العزير ، قد كان فيما مضى ، وطناً مجيداً يهابه الاقوياء ،  
ويستظل به الضعفاء ، وطناً خصباً لا يؤثر نفسه بما أتيح له  
من الخصب ، وانما ينشر النعمة من حوله على غيره من  
الايوطان ، لا ينشر هذه النعمة المادية وحدها ، وانما ينشر  
معها النعمة المعنوية التي تغزو القلوب والعقول ، وتمد ضوء  
الحضارة الى أبعد الآماد ، أتذكر هذا كله ؟ فانظر الى  
وطنك الآن ، كيف ازوى وتضاءل ، وكيف هان امره  
على نفسه ، وعلى الناس ، وكيف أصبح أضعف من ان

يستقل بايسر شؤونه ، وينهض باهون أعبائه ، وكيف اصبح  
قليل الحظر ، حين الشأن ، ينظر اليه الناس ضيقين به ، او  
مشفقين عليه . أتراه قد مسخ كما مسخ ذلك الفتى ، ام تراه  
قد ظل كما كان مصدرأ للخصب ، والقوة ، والمجد ، والبأس ،  
ولكن اهله قد مسخوا ، كما مسخ ذلك الفتى ، فأصبحوا لا  
يصلحون للعيش فيه ، واصبح هو لا يصلح لأيوأهم !

\*

أتذكر هذا البيت الذي يرويه ابو العلاء في رسالة الغفران :  
إعجبي أمنا لصف الليالي مسخت أختنا سكينه فاره  
لقد كنا نضحك حين كنا نقرأ هذا البيت ، فأما الآن  
فلو قد عبرت لنا البحر وشاركت في الحياة التي نحيها ،  
لأنشدت هذا البيت غير ضاحك ولا باسم ، بل لأنشدت هذا  
البيت كما كان ينشده صاحبه ، في كثير من الحزن والعطف  
والرثاء ، لانه كان يعتقد عن يقين ان اخته سكينه ، قد  
مسخت فأرة ، ولانك سترى كما ارى ، ان كثيراً من  
أخواننا القدماء ، قد مسخوا جرذاناً او حيوانات اخرى ،  
ليست احسن حالاً من الجرذان . كل ما بينهم وبين هذه  
الجرذان من الفرق ، هو ان اجسامهم قد احتفظت بصورها  
القديمة ، فهي معتدلة القامة ، تمتد طولاً وعرضاً ، كما تمتد  
اجسام الناس ، لم يصبها المسخ ، وانما اصاب ما يعيش فيها  
من النفوس ، وذلك اشد نكراً ، واعظم بلاء . واي شيء  
أبشع من ان تتقمص نفوس الجرذان اجسام الناس !

صنع الله لصديقنا فلان ! لقد كنا نراه ذكي القلب ، أبي  
النفس ، نافذ البصيرة ، مستقيم الخلق ، طموحاً الى الرفيع من  
الامر ، متنزهاً عن الدنيا ، خرج من بيئته القديمة المتواضعة ،  
فمضى امامه هادئاً مطمئناً ، ناظراً دائماً الى امام ، غير ملتفت  
الى وراء الا قليلاً ، كأنما كان يريد ان يتبين طول الطريق  
التي قطعها ، منذ فارق بيئته تلك ، وكأنما كان يريد ان يعتبر  
بقدميه ، ليستقبل جديده في غير غرور ولا كبرياء . وقد  
استقام له الامر ما مضى امامه هادئاً مطمئناً ، وكان خليقاً  
ان يستقيم له لو أتيح ان يمضي هادئاً مطمئناً ، ولكنه  
دفع في غير أناة ، واختطف في غير ريث ، ووثب الى أرقى  
مما كان يطيق ، فارتقى فجأة في غير اعداد ولا تمهيد ، وانتهى  
الى بيئة جديدة ، قد بعدت الآماد ، وتقطعت الاسباب ،  
بينها وبين بيئته القديمة ، فاصبح اشبه بالديك الذي يوضع  
موضع النسر ، ويراد على ان يملق في اشد الاجواء ارتفاعاً ،  
وليس هو من هذا التحليق في شيء ، وانما قصاره شرف  
متواضع ، يرقى اليه ليستقبل الصباح بالصباح ، ولينفش ريشه  
كلما أتيح له ان ينفشه . فاما ان يرقى في اجواز السماء فلا ،  
لان جناحيه أضعف من ان يبلغا به هذه المنازل المسرفة في  
العلو . ولو قد رأته كما اراه ، ديكاً يسير سيرة النسر ،  
لضحكت قليلاً ، وبكيت كثيراً ، فقد كان خليقاً بمنزلة اخرى  
غير منزلة الديك ، وخلق آخر غير خلقه ، ولكن المنبت  
لا ارضاً قطع ولا ظهرأ ابقى ، وقد انبت صاحبنا ، فلم

يقطع ارضاً ولم يُبق ظهراً .

\*

وعفا الله عن صديقنا فلان ، لقد كنا نراه تقي النفس ،  
طاهر القلب ، صافي الطبع ، مصقول الضمير ، حريصاً اشد  
الحرص ، على ان يتبع الصراط المستقيم ، لا ينحرف عنه الى  
يمين او الى شمال ، مهما تكن الظروف والخطوب . وكنا  
نعجب بحبه للاستقامة ، وبغضه للاعوجاج ، وكنا نضربه للقصده  
مثلاً ، ونراه للاعتدال نموذجاً .

ولكن طريق الحياة لا تستقيم الا لاولي العزم من الناس ،  
او قل انها لا تستقيم لاحد ، وانما يُكرهها اولو العزم من الناس  
على ان تستقيم ، يقتحمون ما يقوم فيها من العقاب ، ويرتفعون  
عما يعترض فيها من دواعي المحنة والفتنة والفساد . ولم يكن  
صاحبنا من أولي العزم ، ولا من ذوي البصائر ، وانما كان رجلاً  
طيب القلب ، ومن طيبة القلب ما يكون ضعفاً . فقد  
مضى في الطريق المستقيمة ما استقامت له ، فلما انحرفت  
به انحراف معها ، ولم يستطع ان يمتنع عليها ، وقد نثرت  
الحياة امامه أشواكاً فاشفق منها ، ونثرت امامه ازهاراً  
فتهاك عليها . نشرت امامه الهول فخاف ، ونصبت امامه  
المعريات فاندفع ، وما هي الا ان تتصور نفسه بهذه الصورة  
المرنة اللينة ، التي لا تثبت لشيء ولا تمتنع على شيء ،  
وانما هي تجزع للنبأة اليسيرة وتستجيب لايسر المعريات ،  
تقر عند الفرع ، وتقبل عند الطمع ، والغريب انها على



ذلك كله ترى في نفسها الخير ، وتؤمن لنفسها بالحكمة ،  
ومضاء العزم .

قيل لها ذلك فصدقت ، واطمأنت اليه ، ولم تنس إلا شيئاً  
واحداً ، وهو انها تبيعت احداث الحياة ، وتأثرت بها ، في غير  
مقاومة ، حتى اصبحت أشبه شيء بالكلب ، إن تحمل عليه  
يلهث ، او تتركه يلهث . وأشهد ما رأيت هذين الصاحبين  
القديمين ، الا رجعت من فوري الى كتاب الحيوان للجاحظ ،  
فقرأت فيه طرفاً من احتجاج صاحب الكلب للكلب ،  
وطرفاً من احتجاج صاحب الديك للديك .

\*

ورفق الله بصديقنا فلان ، أتذكره ؟ لقد كان في اول  
عهده بالشباب ، تقياً نقياً ، وسمحاً رضيعاً ، حلوا العشرة ،  
عذب المنطق ، حسن المدخل ، سهل القياد . كنا نضحك  
من سلامة قلبه ، وبراءة نفسه ، وسداجة عقله : كنا نغرّره  
فيغترّ ، وكنا نخدعه فينخدع ، وكنا نضحك من استجابته  
لكل دعاء ، وتصديقه لكل كلام . ولكن كنا نجهل ان  
من الحيات ما لا يعيش الا في كئيبان الرمل المتهيلة ، التي  
لا تتلبد ، ولا تتجمد ، ولا تستطيع الاقدام ان تمضي فيها  
دون ان تغوص .

نعم وكنا نجهل ان مظهر صاحبنا ذاك ، لم يكن الا  
كئيباً من هذا الرمل السهل اللين ، الذي تغوص فيه  
الاقدام ، ويعبث به أيسر النسيم ، وان في هذا الكئيب

المهيل ، حية تهدأ فتحسن الهدوء ما جنبها الليل ، ثم تسعى  
فتحسن السعي ما اضاءت لها الشمس ، وهي في اثناء سعيها  
وهدهوها موفورة السم ، حديدة الناب ... تأزم فتحسن  
الأزم ، ولا يدنو منها احد ، إلا اصابه من سمها حظ  
موفور .

وانه على ذلك لعذب اللفظ ، لين القول ، حاو الحديث ،  
خلاب جذاب ، يروق مظهره ، ويروع مخبره ، ويشقى به  
القريب منه ، والبعيد عنه .

\*

حياة وكلب وديك . هؤلاء هم اصدقاءنا القدماء . فابك  
ان كنت خيراً ، واضحك ان كنت شراً ، وارسم على  
ثغرك ابتسامة حزينة مرة ، ان كنت شيئاً بين الخير  
والشرير ، وثق على كل حال ، بان اصدقاءنا هؤلاء ، لم  
ينفردوا بما كتب عليهم من المسخ ، وانما هي محنة عامة ،  
يتمحن الله بها هذا الوطن البأس في كثير من بنيه .

وقد تسأل عن مصدر هذه المحنة ، وأصل هذا البلاء ،  
فاعلم انه الانتقال السريع ، يفسد بعض النفوس ، ويغير بعض  
الاخلاق ، ثم لا يلبث ان يمضي بخيره وشره ، وان يرد  
الشعوب الى حياة ملائمة لطباع الاشياء ، يكثر فيها الناس  
الذين يتقمصون اجسام الناس ، ويقل فيها الحيوان الذي  
يتصور في صورة الانسان .

اما بعد ، فان في مدينتك الجميلة حدائق للحيوان ،

تستطيع ان تنزه فيها عينك ، وعقلك ، ولكن حدائقك  
كلها ، على كثرة ما فيها من الغرائب والطرائف ، ونوادير  
الانواع ، لن تقدم اليك كلاباً ، وديكة ، وحيات ، في  
صور الناس ، فاذا لم يَشُقْ نفسك وطنك العزيز ، ولم  
يدفعك الشوق الى الرغبة في عبور البحر ، فلا أقل من  
ان يدفعك الى عبور البحر ما يكتظ به وطنك من هذه  
الطرائف والغرائب والنوادير التي تمرح على ضفاف النيل ،  
وتستظل بظل الازهرام .  
أمقبل أنت لتشهد من قريب ، أم قانع أنت بما يأتيك  
من بعيد . . . ؟

## صرعى

أتذكر قول زياد رحمه الله في خطبته المشهورة لأهل  
البصرة : « وايمُّ الله ان لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر  
كل امرئ منكم ان يكون من صرعاي » ؟  
فان هذه الجملة الخالدة لم يعرب بها زياد عن ذات نفسه ،  
ولا عما كان بينه وبين اهل العراق من صلة ، ولا عما كان  
قد رسم لحكمه من سياسة عنيفة ، ولا عما كان قد فرض  
على نفسه من الحزم والعزم في تدبير امور الناس وحماتهم  
على الجادة راضين او كارهين . لم يعرب زياد بهذه الجملة  
عن هذا كله فحسب ، وانما اعرب بها عن شيء اعمّ واشمل  
من سلطانه ، وابتقى وانخلد من سيرته ، عن شيء يتصل  
بجياة الناس جميعاً ، ويؤثر في اعمالهم جميعاً ، بل في آمالهم

جميعاً ، عن شيء وجد منذ وجد الانسان ، وسبقي ما بقي الانسان ، ولن يزول حتى يرث الله الارض ومن عليها . عبر زياد عن هذا الغرور الذي يدفع الناس الى ان يعملوا ، ويدفع الناس الى ان يأملوا ويفسدوا على الناس اعمالهم وآمالهم ، ويرديهم آخر الامر في هوة عميقة غير ذات قرار من البؤس واليأس والقنوط .

لست ادري ايها استعار من صاحبه هذه الجملة الخالدة التي تصور الموعظة البالغة . أترى ان زياداً قد استعارها من الغرور الذي كان يلقيها على الناس وظل يلقيها على الناس في كل لغة وفي كل بيئة وفي كل عصر ، وفي كل جيل ؟ وأية غرابة في ذلك فالحطباء المتفوقون ، والكتاب المبرزون ، والشعراء الملهمون ، تتصل اسبابهم باسباب المعاني الخالدة ، فيستعيرون منها ما يشاءون ويستهدون منها ما تنطلق به السننهم وتجري به اقلامهم ، فيبقى بقاء الدهر ، ويتصل اتصال الزمان ، ام ترى ان الغرور كان يعظ الناس كما يستطيع ، ثم اتاحت له هذه الجملة الخالدة من خطبة زياد فاتخذها لنفسه رمزاً ، وساق فيها موعظته الخالدة الى القلوب والنفوس والعقول ...

ومهما يكن من شيء فلم يعرب احد عن حديث الغرور الى نفوس الناس كما اعرب عنه زياد . والغريب ان الناس استمعوا لزياد فامتلات قلوبهم خوفاً وروعاً واشفاقاً . واشفق كل امرئ منهم ان يكون من صرعى زياد ،

ولكنها ايام او اسابيع او شهور تمضي واذا الناس ينسون الخوف فيما ينسون ، ويجهلون الروح فيما يجهلون ، ويعرضون عن الاشفاق فيما يعرضون عنه ، واذا هم يسرعون الى الهول او يسرع الهول اليهم ، واذا صرعى زياد يكثرون ، تمتلىء بعضهم السجون ، و تمتلىء بعضهم القبور ، لان الناس لم يكادوا يسمعون حديث زياد حتى نسوه . وهم كذلك يسمعون حديث الغرور الى قلوبهم ونفوسهم وعقولهم ، ثم ينسون هذا الحديث . فيسرعون الى الخطر او يسرع الخطر اليهم ، ويساقطون في الشرك كما يساقط الفراش في النار ، ويصبحون من صرعى الغرور وقد حذرهم الغرور مع ذلك ان يكونوا من صرعاه . ذلك ان الغرور يتحدث الى الناس حديثين مختلفين فيما بينهما اشد الاختلاف . يسوق احدهما الى ما في الناس من تهالك وضعف ، والى ما فيهم من طمع وطموح ، والى ما فيهم من حب للطيبات ، وايتار للعافية ، وتزوع الى ما يرضي الحاجة ويقنع اللذة ، ويتملق الحس ويخادع الشعور ، ويخدع العقل عن حقائق الاشياء .

يسوقه الى استعدادهم للاستجابة للاغراء حين يوجه اليهم الاغراء . يخيل اليهم ان الحياة قصيرة فيجب ان تنتهز ، وانها انما منحت للناس ليحيوها هادئة ناعمة ، ولينة باسمة ، ومشرفة راضية تتحقق فيها الآمال وترضى فيها الكبرياء . ويسوق احدهما الاخر الى ما في نفوس الناس من قوة وجلد وصبر على المكروه وثبات للخطوب ، وتعمق للاشياء

ونفوذ الى حقائقها وايمان بان الحياة لم تخلق عبثاً ولم تمنح للناس سدى ، وبان الفرد لم يخلق لنفسه وانما خلق لمواطنيه ، وان الامة لم تخلق لنفسها وانما خلقت للانسانية ، وأن الحياة قصيرة يجب ان تنتهز لتحقيق النفع ، وتعميم الخير ، وترقية الحضارة ، وإقرار العدل . ذلك اخرى ان يمد قصيرها ، ويصل منقطعها ، ويجعل زائلها خالداً ، وباطلها حقاً ، والمنقضي منها متصلاً .

بهذين الحديثين يتحدث الغرور الى الناس دائماً ، يعدهم ويمنيهم ، ويطمعهم ويفرهم ، ثم يعظهم ويحذرهم ويدعوهم الى الروية والاعتبار .

فاما اكثر الناس فتستخفهم الوعود ، وتزدهيم الاماني ، وتذهب باحلامهم الاطماع ، ويعبث بعقولهم الاغراء ، واذا هم من صرعى الغرور . واما اقلهم او الاقلون الاقلون من اقلهم فلا يستجيبون للعدة الكاذبة التي تمر بها من دونهم رباح الصيف كما يقول الشاعر القديم ، وانما يملكون على نفوسهم امرها ، ويصبرونها على ما تحب وعلى ما تكره ، ويوجهونها الى ما يسرت له من الخير فينفعون وينتفعون ، وينجون من عبث الغرور بهم وتسلطه عليهم ، ويأمنون ان يكونوا من صرعا .

وابتسم يا سيدي ما شئت ان تبسم ، واغرق في الضحك ما طاب لك الاغراق في الضحك ، وسل نفسك او لا تسأها عن هذا الحديث ... ما مصدره وما غايته وما معناه ؟

فليس لهذا الحديث مصدر الا ما انت فيه ، وليس لهذا الحديث غاية ، إلا ما أنت فيه ، وليس لهذا الحديث معنى إلا ما انت فيه . والناس يهتئون اصدقاءهم كما يستطيعون ، ويهدون اليهم من التحية ما يملكون . فهذه هي التهنئة التي استطعت ان اسوقها اليك ، وهذه هي التحية التي املك ان اعرضها عليك ، فاقبلها ان شئت وارفضها ان اجبت . فالله لا يكلف نفسا الا وسعها ، والله لا يحمل الناس على ما لا يطيقون .

أذكر تلك الأيام البعيدة المسرفة في البعد حتى كاد ينساها الزمان ، القرية المسرفة في القرب حتى ما أستقبل الصباح ولا استقبل المساء ولا استقبل عملاً من الأعمال بينها إلا كنت لها ذاكرة ، وفيها مفكراً ، وبها حفيماً ؟ لقد بعدت تلك الايام منك حتى كأنها لم تمر بك او كأنك لم تمر بها ، وحتى كأنك تخلق في كل يوم خلقاً جديداً ينسبك اليوم الذي قبله ، كما ينسى الناس عادة ما يمكن ان يكون قد اختلف على نفوسهم من الاحداث والخطوب قبل ان يدفعوا الى هذه الحياة . ولقد قربت هذه الايام مني حتى كأنني لم اخلق الا لأعيش فيها ، وكأنها لم تخلق إلا لتأخذ علي طرق الحياة فلا استطيع ان اخرج منها ولا تستطيع ان تنأى عني ، وانما وقفت علي ووقفت عليها ، وقيل للزمن ألا يتقدم حتى لا يتجاوزها وألا يتأخر حتى لا ارد عنها ، فأنا سجينها ، وهي سجينتي ، قد اكرهنا على ان نصطحب ، فلن اجد منها مخرجاً ، ولن



تستطيع عني انصرافاً .

أتذكر تلك الايام ؟ .. أنفق شيئاً من الجهد لعلك  
تستحضر منها ظلالاً ضئيلة ان أمكن ان تكون لـلايام  
ظلال . انفق شيئاً من الجهد حين تخلو الى نفسك ،  
ان استطعت ان تخلو الى نفسك ، واستحضر بعض تلك  
الايام التي كنا نستقبلها باسمين لها ، وكانت تستقبلنا باسمه  
لنا ، وكان في ابتسامنا وابتسامها هدوء مطمئن يملأ القلوب ثقة  
ورضى وأمناً . لم نكن نطمع في شيء إلا ان نعلم في كل  
يوم يُقبل علينا اكثر مما كنا نعلم في كل يوم يدبر عنا .  
وكان ذلك الينا وحدنا لا يستطيع احد ان يردنا عنه ،  
او ان يرده عنا . انما هو حب للمعرفة ، واقبال عليها ، والحاح  
في طلبها ، واستمتاع بهذا الاحاح ، وتزويد من هذا الاستمتاع .

☆

أتذكر تلك الايام ؟ .. لقد كانت لنا فيها آمال محببة  
الى نفوسنا ، أثيرة في قلوبنا ، متواضعة تواضع العلم ، متعالية  
تعالى العلم ، لا يستطيع احد ان يصدنا عنها ، ولا يستطيع احد  
أن يصدنا عنها . لم نكن نريد الا ان نهتدي الى الحق  
ونهدي اليه ، لم نكن نريد الا ان نصل الى الخير ونوصل  
اليه ، لم نكن نريد الا ان نملأ قلوبنا علماً . ان أمكن ان  
تمتلئ القلوب ، ثم ننشر العلم من حولنا ما وجدنا الى  
نشره سبيلاً . كانت امامنا من الجهل والغي والسخف صورة  
بشعة منكرة ، ولكنها لم تكن تخيفنا ولا تروغنا وانما

كانت تدعونا الى نفسها ، لا لنحبها بل لنبغضها ، لا لنبقها بل لنلعنها .

أتذكر تلك الايام ؟ ... لقد كانت قلوبنا فيها تقية نقاء الشمس ، رخية رخاء النسيم ، عذبة عذوبة الماء الذي صفا ، فلا يشوبه كدر ولا يفسده رنق . أتذكر تلك الايام ؟ لقد كانت آمالنا تقية نقاء قلوبنا ، رخية رخاء طباعنا ، صافية صفاء أمزجتنا . في تلك الايام البعيدة القريبة آمنت نفوسنا ، لان الاصلاح وحده هو الذي سيستأثر بها وبما تملك من قوة وجهد ، ومن غير القوة والجهد مما تملك النفوس .

في تلك الايام ساق الينا الغرور حديثه . ساق الينا حديث الاغراء فأعرضنا عنه اعراضاً ، وساق الينا حديث الاباء فأقبلنا عليه اقبالاً . في تلك الايام ثبتنا للمكروه وصبرنا على الشر ، وُصِبَّ علينا الاذى فلم يبلغ منا ، واطاف بنا الكيد فلم يصل الينا ، وقامت امامنا العقاب فلم تردنا عن الغاية ، ولم تصدنا عن الطريق :

ثم انقضت تلك السنون وأهلها

فكانها وكأنهم أحلامٌ

ما اكثر ما قرأنا هذا البيت من شعر ، وما أكثر ما تمثلنا به حين كنا نسمع احاديث بعض الناس الذين كانوا يستجيبون للغرور فيصبحون من صرعاة . واقسم ما خطر لي قط اني سأتمثل بهذا البيت ذات يوم حين اقرأ

الصحف مصباحاً او مسياً ، فاذا لساني ينطق ، وما اردت  
انطاقه ، بقول الأعشى :

شتان ما يومي على كورها

ويوم حيان أخي جابر

فرحم الله زياداً وتجاوز له عن خطيئته . اقدّر حين ألقى  
خطبته تلك انه كان يعرب أحسن الاعراب عن حديث  
الغرور الى اولي العزم من الناس حين قال : « وايم الله  
ان لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرىء منكم ان  
يكون من صرعاي » !

## نفوسٌ لبيع

لا تُتَرَعْ يا سيدي لا تُتَرَعْ ، فليس في امر صديقك ما يدعو الى الروع . لقد وثقت به كما لم تثق باحد ، واعتمدت عليه كما لم تعتمد على احد ، واطمأنت اليه كما لم تطمئن الى انسان . ثم نظرت ذات يوم فاذا ثققتك وهم ، واذا اعتمدك هباء ، واذا اطمئنانك غرور ، واذا صديقك الذي اصفيته حبك ، واختصصته بودك ، واظهرته على سرك ، واعدته لكل ما يعرض من امرك ، يمكر بك ويكيد لك ويتخذك وسيلة الى تحقيق المنافع ، وبلوغ الآراب .

وماذا تنكر من ذلك وهو شيء يجري في كل يوم ، ويحدث في كل وقت ، صورته الآداب القديمة فأحسنست تصويره ، وعرضته الآداب الحديثة فأحسنست عرضه ، وأنت

رجل مثقف قد قرأت من غير شك ما كتب الكتاب ،  
ونظم الشعراء في الوفاء القليل والعدر الكثير ، وفي الأخ  
الذي يمنحك وده ما احتاج اليك ، وإعراضه ما استغنى  
عنك ، وفي الصديق الذي :

يعطيك من طرف اللسان حلاوة

ويروغ منك كما يروغ الثعلبُ

وفي الولي الذي يواتيك ما استقامت لك الحياة ، ويجافيك  
حين تعرض عنك الدنيا ، وفي صاحب الذي يرضى عنك  
ما رضى عنك السلطان ، ويسخط عليك ما سخط  
السلطان . كل هذه اوليات قد قرأتها في الكتب ، وسمعتها  
في حجرات الدرس ، وتحدثت بها الى الناس وتحدث الناس  
بها اليك ، ثم هانت ذا ترتاع لانك جربت ما جربه الناس  
من قبلك ومن حولك ، وبلوت في ذات نفسك ما بلاه  
الناس في كل عصر وفي كل جيل . أتعرف ما يدل عليه  
هذا الروع الذي يملأ قلبك ، وهذا الحزن الذي يفمر نفسك ،  
وهذا البؤس الذي يفعم ضميرك ؟ انما يدل هذا كله على شيء  
واحد يسير اوّلي لا غرابة فيه ولا مشقة في فهمه ، يدل على  
انك تقرأ الكتب وتشهد الاحداث وترى العبر والمواعظ ،  
فتزعم لنفسك وللناس انك تنتفع بما تقرأ وما ترى وما  
تشهد . وتخيل الى نفسك والى الناس انك تستفيد مما امتلأت  
به الحياة من التجارب ، على حين انك لم تنتفع ، ولم تستفد ،  
ولم تصل الموعظة الى قلبك ، ولم تبلغ العبرة دخيلة نفسك ،

ولم تؤثر التجربة في ضميرك .  
فأنت تؤمن بهذا كله ايماناً ظاهراً لا عمق له ولا استقرار ،  
حتى اذا دهمتك الاحداث وألحت عليك الخطوب وجدتك  
طفلاً قليل التجربة ضئيل الاختبار ، فروّعك كما يراعى الطفل  
لأيسر ما يعرض له من الوهم .

\*

فكّر كم شيعت من جنازة ، وكم جزعت لفقد صاحب  
او اخ او صديق ، وكم استيقنت فيما بينك وبين نفسك ،  
وفما بينك وبين الناس ان الحياة باطل وان الدنيا غرور ،  
وان الآمال لعب وان الاماني كذب ؟ ثم فكر كيف  
انجحت عنك الغمرات ، وكيف استقبلت ايامك راضياً عنها ،  
باسماً لها ، مبتهجاً بها ، مجاهداً في سبيل ما تبغى من المنافع  
والمآرب كانك لم تشيع جنازة ، ولم تفقد صديقاً ، ولم تتعظ  
بموت ، ولم تستيقن ان الحياة وما فيها باطل وغرور .  
لا ترع يا سيدي ، لا ترع ، ان فقد الصديق حين يختطفه  
الموت الى غير رجعة يؤسك من الحياة حيناً يقصر او يطول ،  
ولكنه لا يلبث ان يرد اليك الأمل ، ويملاً قلبك بالاماني  
ويدفعك الى العمل ، ويملاً نفسك نشاطاً ومرحاً ، فكيف بما  
يعرض لك من فقد الصديق الحي الذي لم يختطفه الموت الى  
غير رجعة ، وانما اختطفته المنفعة الى رجعة قريبة او بعيدة .  
انه يُعرض عنك اليوم فقد يقبل عليك غداً ، انه يمكر بك  
الآن فقد يمكر بعدوك بعد حين ، انه يأتمر بك ليؤذيك في

هذه الظروف فقد يأتمر لك لينفعك في ظروف أخرى .

\*

خذ الحياة كما هي ، وخذ الناس كما هم ، وقدّر ان بما  
يلائم طبائع الاشياء ان يموت الناس وهم احياء ، وان يجيئ  
الناس وهم اموات . انك تأسى لما فقدت من صديقك هذا  
الذي تنكّر لك وائتمر بك ، وألّب عليك ، ولكنك تنعم  
بهذه الذكرى التي تستبقي لك اولئك الاصدقاء الذين  
اختطفهم الموت فتولوا عنك ، لم يمكروا بك ولم يكيدوا  
لك ولم يؤلبوا عليك .

قوم يموتون وهم احياء فتعزّ عنهم واصبر عليهم ، فقد تردّ  
اليهم الحياة ذات يوم ، وقوم يحيون وهم اموات فاذكرهم  
اجمل الذكر ، واستبق حبهم في قلبك ، وودهم في ضميرك ،  
وامنحهم بين حين وحين كلمة خير ودمعة وفاء .

لا ترع يا سيدي ، لا ترع فان هذا الامر الذي  
يؤذيك ويغنيك ويشق عليك لا يجري عليك وحدك ، وانما  
يجري على غيرك من الناس . انظر من حولك فسترى  
نفوساً تعرض للبيع وأخلاقاً تعرض للمساومة ، منها ما  
يباع بثمن نجس ، ومنها ما يباع بثمن لا بأس به ،  
ولكنها كلها تباع على كل حال .

وما الذي تنكر من ذلك وحياة الناس رهينة بمنافعهم  
وماآربهم ، وحضارة الناس شيء مكتسب ليس من الضروري  
ان يمتزج بدمائهم ويجري في عروقهم ، ويصبح لهم مزاجاً

وطبعاً ، وانما هو شيء متكلف لا يؤمن به ولا يؤمن له  
الا الأقلون . فأما الاكثرون فيتخذونه وسيلة يتقي بها  
بعضهم شر بعض ، وقد ينتغي به بعضهم شر بعض .

\*

فكر ان هذه الازمات التي تلح على الناس منذ  
اول هذا القرن تلقي عليهم دروساً فيها الخوف ، وفيها  
الاعراض ، فيها اليأس وفيها الرجاء ، فيها انتهاز القرص  
وفيها الثبات على الخلق الكريم .

ان هذه الازمات تعلم الناس ان الحياة قصيرة هينة  
ورخيصة ، فمن الخير انتهازها والانتفاع بها الى اقصى آمام  
الانتفاع . هذه الملايين التي ارسلت الى الموت ابتغاء العدوان ،  
وهذه الملايين التي ارسلت الى الموت ابتغاء دفع العدوان ،  
وهذه الملايين التي عُذبت في معتقلات الاسر ، وهذه الملايين  
التي نُصِبَ الموت والعذاب عليها صباً لا لشيء الا لارضاء  
حاجة الانسان الى البغي والاثم واللذة البشعة ، كل هذه الملايين  
قد اقامت الدليل للناس على ان الحياة قصيرة هينة ورخيصة ،  
وأقرت في نفوس كثير من الناس ان الحزم انما هو في  
انتهاز الفرصة واقتضاء المنفعة والاستمتاع باللذة ، مهما تكن  
النتائج ومهما تكن الظروف . فما الذي تُنكر من ان  
يدعو هذا كله الى إهدار القيم التي الفتها ، وضياع المقاييس  
التي نشأت عليها ؟ وما الذي تُنكر من ان يتحول عنك  
الصديق لأنهم لا يجدون عندك منفعة ولا مآرباً ، او لأنهم



يجدون عند غيرك من المنافع والمآرب أكثر مما يجدون  
عندك ؟

\*

لا ترع يا سيدي ، لا ترع ، فليس في الأمر ما يدعو الى  
الروع . وانما انت خليك ان تختار بين اثنتين ، وان يكون  
اختيارك عن حزم وبصيرة ، وعن روية وتفكير ، وعن اناة  
وتحفظ واحتياط . فاما ان تستبقي ما نشأت عليه من خلق ، وما  
فطرت عليه من مزاج ، فتمتنع على الغواية ، وتقاوم الاثم ،  
وتصون نفسك من ان تكون سلعة تعرض للبيع والشراء ،  
وتعصم أخلاقك من ان تكون موضوعاً للمساومة ، وما  
يكون في المساومة من ارتفاع الاثمان وهبوطها ، واذن  
فأيسر ما يجب عليك اذا اخترت هذه الحصلة ، ان ترضى  
بالقليل ، وتقتنع باليسير ، وتروض نفسك على غدر الصديق  
وخيانة الاخوان ، وتحوّل الرفاق وتنكّر الحلان . تلقى  
ذلك باسماً له وساخراً منه ان كنت من اولي العزائم الماضية  
والهمم العالية ، وتلقى ذلك شقيماً به محزوناً له ، ولكنك  
تحتمله على كل حال ، ان كنت من الصادقين الذين لم ترتفع  
نفوسهم الى منازل التابعين والافذاذ . واما ان تدور مع  
الزمن وتسائر الحياة ، وتنعم حين تساق اليك ، وتعرض  
نفسك للبيع حين تسنح الفرصة لك ، وتحتطف اللذة حين  
تساق اليك وتعرض نفسك للبيع فتبيعها بالثمن الغالي ان  
اتيح لك ، وبالثمن الرخيص ان لم تجد بداً من قبول

الشمّن الرخيص .

\*

لا ترع يا سيدي ، لا ترع ، فليس في الامر ما يدعو  
الى الروع . انك قد اخترت الحصلة الاولى الى الآن فلم  
تردهك المنافع ، ولم تستخفك اللذات ، ولم يستهوك السلطان ،  
ولم تبع نفسك مع البائعين . وقد لقيت في ذلك كثيراً  
من الاذى ، وصبرت نفسك في ذلك على كثير من المكروه ،  
ورأيت أصدقاءك من حولك تتخطفهم المنافع ، ويصرعهم  
حب الشهوات .

ثم انك تنظر في كل يوم فترى نفسك تسرع الى الوحدة  
او تسرع الوحدة اليها ، وترى نفسك مقبلاً على العزلة ، معنأً  
فيها ، إما لان الناس من حولك يضيّقون بتحفظك وتزمتك  
فينصرفون عنك ، واما لانك تضيق بتهالك الناس وتهاقتهم  
وتساقطهم على المنافع الوضيعة ، كما يساقط الذباب على  
العسل أو كما تساقط الفراش في النار ، فتصرف عنهم ،  
وتنشد قول الشاعر القديم :

حيّ الجمول بجانب الرمل  
اذ لا يلائم شكلها شكلي

\*

نعم يا سيدي ، انت قد آثرت الحصلة الاولى ، فلم  
تعرض نفسك للبيع ولم تطرح اخلاقك للمساومة . وأنت  
ترى النفوس من حولك تباع ، وترى الاخلاق من حولك

تعرض للمساومة ؛ فيؤذيك ما ترى ، ويداخلك الشك فيما  
اخترت لنفسك من سيرة وما سلكت بها من طريق .  
وما ارى الا ان هذا الروع الذي يملأ اليوم قلبك  
ويفسد عليك أمرك ، لان صديقك هذا قد تحول عنك  
وجزائك بالوفاء خيانة وبالبر مكرراً وكيداً ، ليظفر بمنصب  
خطير يغلّ عليه مالا لم يكن يحلم بأقله ، ما ارى الا ان  
هذا الروع مظهر من مظاهر الشك الذي يخامر نفسك  
ويداخل ضميرك . فأنت حائر لا تدري أخطيء أنت ام  
مصيب ؟ وأنت تسأل نفسك ، ولولا الحياء لسألت الناس ،  
أعاقل أنت ام مجنون ؟

ان المنافع تسعى اليك ، وان الآمال تتراءى لك ،  
خلافةً جذابة براءة ، وانك ترى الناس من حولك يسعون  
الى المنافع ويتهاككون على الآمال ، وانك تهم ان تفعل  
كما يفعلون ثم ترد نفسك الى الخزم وتأبى عليها الهوان .  
وما اكره لك هذا الروع ، وما اشفق عليك من هذا  
الشك ، فلست احب للرجل الكريم ان تكون كرامته  
عادة مألوفة وشيئاً يسيراً لا مشقة فيه ، وانما احب له ان  
يكسب كرامته كسباً ويأخذها غلاباً ، ويفرضها على  
الناس فرضاً ، وان يعرض له الشك في كل يوم ، فلا  
يبلغ منه شيئاً ، وان يلح عليه الاغراء في كل ساعة فلا  
يلين له قناة ؛ فهو ناظرٌ لنفسه في كل لحظة ومدافع عنها  
في كل حين . فجدد الاختيار لنفسك بين الحياة السهلة

اليسيرة الحلوة المواتية ، وبين الحياة الصعبة العسيرة المرة  
الجافية .

فان اخوت الثانية فنعم الصديق ، وان اخوت الاولى  
فمثق باني لن أروّع لفقدك ، كما روعت انت لفقد صديقك ،  
ذلك لاني وطنت نفسي على موت الاصدقاء وهم احياء ،  
وعلى حياة الاصدقاء وهم اموات ، ولاني أنشد نفسي من  
حين الى حين هذا الشعر الذي رد معاوية عن الانهزام يوم  
صفين :

وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي او تستريحني

## كلمات

كما أنت ايها الصديق الكريم ، لا تقم إن كنت قاعداً ،  
ولا تتعد إن كنت قائماً ، ولا تتحول عن مكانك الى يمين  
او شمال ، ولا ترجع الى وراء ، وانما امض الى امام  
إن احببت الماضي ، فأنا هو كلام يقال في كل عصر وفي  
كل جيل ... قلناه حين كنا شباباً فلم نغير مما كان حولنا  
شيئاً بالقول ، ويقوله الشباب لنا الآن فلا يغيرون بما  
حولهم شيئاً بالقول ، وسيلغون في يوم من الايام ما بلغنا  
من السن ، وسيصلون الى ما وصلنا اليه من المنازل ،  
وسيقول لهم ابناؤهم واحفادهم مثل ما يقولون لنا الآن ،  
ومثل ما قلنا نحن لأبائنا واجدادنا من قبل ، فلا يغيرون  
شيئاً بالقول كما لم نغير نحن شيئاً ، لان تغيير الاشياء لا يكون

بالكلام الذي يقال عن اخلاص او عن تكلف ، وعن  
تفكير او عن اندفاع ، وانما يكون بالعمل الذي ينقل  
الاشياء من طور الى طور ، ويضعها حيث يجب ان تكون .  
كما أنت اذن ايها الصديق الكريم ، لا تغير من حياتك  
ولا من سيرتك شيئاً ، بل لا تغير من رأيك في الاحياء  
والاشياء إلا أن يدعوك التفكير وتضطرك الاحداث وطبيعة  
الحياة الى أن تغير من رأيك قليلاً او كثيراً .

\*

كما أنت لا تُتزل عن ثغرك هذه الابتسامة السمحة التي  
الفت ان تلقى بها الناس ، وما يختلف عليهم من الاطوار  
وما يلم بهم من الخطوب ، ولا تُتلق عن وجهك هذا القناع  
المشرق الوضاء الذي يزيد العزم اشراقاً والحزم وضاءة ،  
والذي تلقى به المصاعب مجاهداً لها حتى تقهرها وتظهر  
عليها .

ما اكثر ما كان يقال لك مما تحب ومما لا تحب ،  
وما اكثر ما كنت تسمع لهذا وذاك ، فلا تنحرف عن  
طريقك حتى تبلغ الغاية ؛ ولا تنصرف عما صممت عليه حتى  
تنتهي منه الى ما كنت تريد ؛ فما ينبغي ان تنال الالفاظ  
منك في هذه الايام ما لم تكن تستطيع ان تناله فيما مضى  
من الايام ؛ إلا ان يكون الضعف قد اصابك والهرم قد  
بلغ منك ؛ فأنت حينئذ مضطر الى ان تريح وتسترىح ؛  
لا لأن هؤلاء النفر او أولئك النفر تقدموا اليك في أن

تريح وتستريح ، بل لأن طبيعة الحياة نفسها هي التي  
تفرض عليك ان تريح وتستريح .  
متى رأيت الشباب يحبون المهمل ويصطنعون الاناة  
ويأخذون أنفسهم بالرفق ؟ ذلك شيء لا يوافق طبائعهم ولا  
يلائم غرائزهم ولا يتأني لأمرجتهم .

\*

وقد علمنا ارسطاطليس ، منذ اربعة وعشرين قرناً ، أن  
الاندفاع اخص خصائص الشباب ، واخير كل الخير في أن  
يندفع الشباب ولا يستأنوا ، وفي ان يتحمسوا ولا يفتروا ،  
وفي ان يغامروا ولا يحاذروا ، وفي ان يتعجلوا ولا يتمهلوا ،  
بغير هذا لا تستقيم للناس حياتهم ولا تصلح لهم امورهم .  
وقد أنبأنا بيريكليس منذ خمسة وعشرين قرناً بان الشباب  
ربيع الحياة ، ومتى رأيت الربيع يستأنى في نشر جماله على  
الارض ؟ ومتى رأيت الربيع يتمهل في اشاعة الحياة والحرارة  
والنشاط في الطبيعة ؟ ومتى رأيت زهر الربيع يتردد قبل  
ان يتفتح ؟ ومتى رأيت الاغصان الخضراء تنضج نفسها قبل  
ان تطاوع النسيم حين يريد ان يعابثها فتعابثه ، وان يميل  
بها فتميل معه حيث يميل ؟ انما يقدم الربيع فجأة على رغم  
ما يوقت له من المواعيد ، في المراصد والتقويم . تصبح  
ذات يوم او تسمي ذات يوم ، فاذا الحياة قد اندفعت في  
هذه القطعة من الروض فلأنها قوة وفتوة ونغماً ، ونشرت  
عليها زينة وجمالاً لم تكن تقدرهما قبل ذلك بايام ، بل

قبل ذلك بساعات . كذلك الحياة كلها تندفع في ابان  
الاندفاع وتستأنفي في إبان الاناة ، ثم يسعى اليها الفتور او  
تسعى هي الى الفتور فيدركها الذواء الذي لا يُبقي منها  
إلا ذمء يسيراً ثم يصيبها الذبول ، ثم يلم بها الحدث  
الاعظم الذي يجعلها هشيماً تذروه الرياح . ونحن نرى ذلك  
كله يجري على سجيته ويمضي على اذلاله ، لا نستطيع ان  
نغير قوانينه ولا ان نقدم او نُؤخر شيئاً منه عن مواعده  
المقسوم له . ونحن ننتهج للربيع حين يقبل ، ونكتئب  
للصيف حين يُلم ، ونبتئس للخريف حين ينثر من حولنا  
الاوراق ، ونستخفي من الشتاء حين يملأ الجو والارض من  
حولنا برداً تكمش له النفوس وتتشعر له الاجسام ، ولكن  
ابتهاجنا واكتئابنا وابتئاسنا واستخفافنا لا يغير من مجرى  
الفصول شيئاً . ولو استمع الصيف للربيع لما اقبل ، ولو  
استمع الربيع للشتاء لما ملأ الارض بهجة وجمالا . فدع  
الشباب وما يقولون ، وامض انت لما يُسرت له حتى  
تضترك الحياة الى الهدوء ثم الى الوقوف ، ثم الى السكون  
والهمود .

كما انت ايها الصديق الكريم ، لا تتحول عن طريقك  
فان الحياة لم تحصر في طريق واحدة ضيقة ، وانما انبسطت  
امامها طرق لا تحصى ، وهي قادرة على ان تسع الاحياء  
جميعاً . والحياة العقلية خاصة اوسع جداً مما يظن المثقفون  
والمفكرون والمنتجون في العلم والادب والفن . وقد أفهم



ان يقول حزب سياسي لحزب سياسي : تنحّ لي عن طريق الحكم وانزل عن مناصبه ، فانا أحقّ بها وأقدر على تدبيرها منك ، ولكن الحكم ليس هو الحياة ، وانما هو فرع ضئيل جداً من فروع الحياة ، ولعله ان يكون اشدها خآلة واهونها شأنًا واكلها خطراً ، ولكن الشيء الذي لم افهمه ولن افهمه ، لان احداً لم يستطع قط ان يفهمه ، هو ان يقول جيل من المفكرين لجيل آخر من المفكرين : كفوا عقولكم عن التفكير والانتاج لاستطيع انا ان افكر وانتج ، وان يقول جيل من الفنانين لجيل من الفنانين : كفوا عيونكم عن ان ترى لانها قد رأت ما يكفيها ، وكفوا قلوبكم عن ان تشعر لانها قد شعرت بما اطاعت ان تشعر به ، وكفوا ملكاتكم عن ان تنتج لانها قد انتجت ما وسعها الانتاج ، وافسحوا لي حتى استأثر من دونكم باحساس الجمال والشعور بدقائقه وتصويره ، كما استطيع ان اصوره او كما احب ان اصوره . هذا شيء لم افهمه قط ولن افهمه آخر الدهر ، فليس الى فهمه من سبيل . فالكون وما فيه من حقائق ودقائق ، ومن جمال وقبح ، لم يخلق لجيل من الناس دون جيل ، ولم يوقف على فريق منهم دون فريق ، وهو لا يتحدث ولا ينبغي ان يتحدث الى بيئة منهم دون بيئة ، ولا ان يظهر روائعه للشيوخ من دون الشباب ولا للشباب من دون الشيوخ . وانما هو يتحدث الى من يريد ، او الى من يستطيع ان يسمع له ويفهم عنه ، وهو يوحى

الى من يريد او يستطيع ان يتلقى عنه الوحي . وهو  
يعرض جماله وقبحه لمن يريد او يستطيع ان يرى الجمال  
فيقبل عليه ويدعو اليه ، وان يرى القبح فيصد عنه  
ويزهده فيه .

\*

انما الكون آية لمن كان له قلب . . او القى السمع وهو  
شاهد . والله لم يخلق القلوب في صدور الشيوخ وحدهم ، ولا  
في صدور الشباب وحدهم ، ولم يجعل السمع في آذان هؤلاء  
من دون اولئك . او اولئك من دون هؤلاء . وما اعرف  
شيئاً يستطيع ان يسمع الناس جميعاً كهذه الاشياء التي تتصل  
بالعقول والقلوب ، وما تنتج من آيات المعرفة والفن .  
والناس يزدحمون ويتدافعون بالايدي والمناكب ويؤذي  
بعضهم بعضاً بهذا الازدحام والتدافع حول مناصب الحكم  
ومصادر الرزق وموارد المال ، فيجاز ان يقول فريق منهم  
لفريق : دع لي مكانك وافسح لي الطريق ، وجاز ان يكره  
فريق منهم فريقاً على ان يدع له مكانه ويفسح له الطريق ،  
فاما العلم والادب والفلسفة والفن فانها ميسرة لمن ارادها  
واستطاع السبيل اليها ، وكان لها ميسراً ، وبها موكلاً ، وعليها  
قادراً ، فلا سبيل الى الازدحام عليها ولا التدافع اليها  
بالايدي والمناكب ، لانها تسع الناس جميعاً .

\*

واذن فما قول الشباب للشيوخ افسحوا لنا الطريق الى

الادب ، او افسحوا لنا الطريق الى العلم ، او افسحوا لنا  
الطريق إلى الفن ؟ فان الشيوخ فيما اعلم لا يصدون الشباب  
عن ادب او علم او فن ، وانما يدعونهم اليه دعاء فيه  
كثير من الاحاح . اليس من الممكن ان يكون الشيء  
الذي ينفسه الشباب على الشيوخ ليس هو الادب او العلم  
او الفن ، وانما هو ما قد ينتجه الادب والعلم والفن من  
اقبال الناس على الشيوخ اكثر مما يقبلون على الشباب ؟  
واذن فالامر ينتهي الى ازدحام حول اعراض الحياة الباطلة  
واعراضها المادية الزهيدة ، حول الشهرة وبعد الصيت ، وما  
قد تتيح الشهرة وبعد الصيت من مال قليل او كثير ،  
حول غرور الدنيا وزخرف الحياة . فيا لها من غاية هينة  
ورخيصة لا ينبغي ان يكون حولها ازدحام ، ولا ان يكون  
اليها تدافع ، ولا أن تتقطع من اجلها الاعناق ، ولا ان تتمزق  
في سبيلها القلوب . ومن حق الشباب على الشيوخ ان  
يؤدبهم بما ينبغي ان يؤدب المجربون به من لا حظ لهم من  
تجربة ، وان يعلموهم ان الشهرة لا تكتسب لانك تريد  
اكتسابها . فاذا اكتسبت لذلك فليست هي إلا هباء ، وان  
المال لا ينبغي ان يؤخذ بغير حقه ، فاذا اخذ بغير حقه  
فذلك هو الغصب وما يشبه الغصب مما لا يليق بالرجل  
الكريم . وان غرور الدنيا وزخرف الحياة باطل لا معنى  
للتهالك عليه ولا للتنافس فيه ، الا ان تفسد القلوب وتصغر  
النفوس وتقتصر الهمم وتفتقر العزائم . وان الرجل الكريم

تخليق ان يعمل ويعمل ويشقّ على نفسه بالعمل حين يصبح ،  
وحين يمسي ، وحين يضطرب مع الناس ، وحين يخلو الى نفسه ،  
واكاد املي ، وحين يستسلم الى النوم .

\*

فالعامل وحده هو الذي يستطيع ان يرضي القلب الذي ،  
ويقنع النفس الكبيرة ، ويزيد البصيرة نفوذاً الى نفوذ ،  
والعزيمة مضاء الى مضاء ، وهنالك تسعى الشهرة الى العاملين  
وهم أشد ما يكونون زهداً فيها واعراضاً عنها ، ويسعى  
المال الى العاملين وهم اشد ما يكونون ابتداءً له واستهزاء  
به . وما اقلّ ما يسعى المال الى اصحاب الجد ، وانما المال  
موكل بقوم آخرين ليسوا من العمل ولا من الجد في شيء ،  
وليسوا من الادب ولا من العلم ولا من الفلسفة ولا من  
الفن في شيء ، الا قليلاً من الذين يحققون القاعدة ولا  
يهدمونها .

\*

نعم ، ومن حق الشباب على الشيوخ ان يؤدّبهم بهذا  
الادب اليسير الذي توارثته الاجيال وتناقلته العصور ، وهو  
ان السلامة في الاناة وان الندامة في العجلة ، وان الحياة  
اشبه شيء بالنهر يجري ولكن الى غاية ينتهي عندها حين  
يصب في البحر العظيم فيصبح ماء من الماء ، وان مياه هذا  
النهر قد اريد لها ان يجري بعضها امام بعض ، لا  
يتأخر المتقدم منها على المتأخر ، ولا يتقدم المتأخر منها على

المتقدم ، وانما يجري بعضها الى الغاية في اثر بعض . فالشيوخ  
في طريقهم الى الراحة الموقوتة او الدائمة ليس في ذلك  
شك ، وليس عن ذلك محيص ، والشباب في طريقهم الى  
ان يأخذوا مكان الشيوخ ليس من ذلك بد ، وليس عن  
ذلك متحوّل ، والذوق كل الذوق ألا يتعجل الابناء مصارع  
الآباء ، فمصارعهم محتومة لا مفر منها ، والخير كل الخير  
ان تقوم الصلات بين الاجيال على المودة والحب ، وعلى  
التعاطف والبر ، لا على هذا التنافس الذي يُحفظ القلوب  
ويفسد الضائر ولا يغير من حقائق الحياة شيئاً .

\*

كما انت ايها الصديق الكريم ، لا تقم ان كنت قاعداً  
ولا تقعد ان كنت قائماً ، ولا ترجع الى وراء ، ولا تنحرف  
الى يمين او الى شمال ، وانما امض امامك حازماً عازماً  
ثابت الخطو ، والتفت بين حين وحين الى الشباب مهدياً  
اليهم ابتسام ثغرك ، واشراق وجهك ، وعطف قلبك ، وصفاء  
نفسك ، واشر اليهم بين حين وحين : ان اسرعوا ولا  
تبطؤوا ، فليس اشد خطراً على الشباب من التناقل والابطاء .

## مصر بين النعيم والمجيم

اقم حيث انت يا سيدي .. لا تبرح الارض ولا تعبر  
البحر ، فان من ورائه في مصر هولاً هائلاً ، وشرّاً مائلاً ،  
وبلاء نازلاً ، وعذاباً اليماً ، وجحيماً قد استقر فيها لا  
تدري اهبط عليها من اطباق الجوام صعد اليها من اعماق  
الأرض . ولكنها اصبحت ذات نهار ، او امست ذات ليل ،  
فاذا هو قد اتخذ له في قرية من قراها وكرّاً ، لا يعرف  
متى اتخذه ولا كيف اتخذه ولا من اين سعى اليه . ولكنه  
اتخذ في تلك القرية ذلك الوكر على كل حال ، ثم لم  
يلبث ان باض فيه وفرخ ، ثم لم يلبث ان ارسل رسله  
المنكرة طلائع له في القرية وما حولها ، ثم امدّ الطلائع

بطلائع مثلها ، ثم اتصلت الامداد وجعلت ترحف في الشرق والغرب وفي الشمال والجنوب ، حتى غمرت مصر كلها بالنكر المنكر ، والوباء المبير .

وقد كان المصريون يقدرّون في سابق الازمان وسالف العصر والاولان ، كما يقول اصحاب الاقاصيص ، ان الآخرة هي التي تقذف بالاشرار في الجحيم وتمتع الاخيار بالنعيم . فقد استبان لهم في هذه الايام ان في الدنيا جحيا ونعياً ، ولكنها لا يختاران اصحابها وانما يتخطفانهم تخطفاً ، ويستبقان اليهم استباقاً . فجحيم الدنيا هذا الذي تصلاه مصر ، لا يتخير الاشرار وحدهم ، وانما يلقي شبابه آتاء الليل والنهار وهو واثق كل الثقة بانها لن تعود اليه فارعة ولا خفافاً ، وانما تعود اليه ملأى قد اثقلها الصيد ، تصيب من تشاء او من تستطيع ان تصيبه من الناس لا يعنيه ولا يعني ملقيها ان يكون صيدها خيراً او شريراً .

فاما نعيم الدنيا فأثره حذر متحفظ متحرج ، لا ينتخب اصحابه بين اهل الخير وحدهم ، ولا بين اهل الشر وحدهم . وليس هو من الخير والشر في شيء ، وانما هو نعيم متوف يجب القادرين على الترف ، والمؤثرين له ، والبالغين منه اقصى ما يستطيع الناس ان يبلغوا . وهو من اجل ذلك مقل لا يجب الاكثار ، مترفع لا يجب ان يتسفل الى الدهماء ولا ان يمس العامة بجناح من رفقته ولينه . وهو لا ينتخب اصحابه من اهل المعرفة ولا من اهل الجهل ،

وليس هو من المعرفة والجهل في شيء ، وانما يجذبه المال اليه جذباً ويعطفه الثراء عليه عطفاً . فهو مولع بالمال الكثير والثراء العريض ، لا يحب الفقراء ولا يميل الى اوساط الناس ، الذين يجدون في شيء من الجهد والمشقة ما ينفقون وانما هو يؤثر بالحب والبر والعطف ، الذين لا يكيلون المال كيلاً وانما يهيلونه هيلاً ، ثم لا ينتخب اصحابه بين الذين اتيح لهم ذكاء القلب وصفاء الطبع ونقاء الذوق ، وليس هو من هذه الحُصَال كلها في شيء ، وانما اصفياؤه واخلاؤه اولئك الذين قد كثر عليهم المال حتى اثقلهم ، وألح عليهم الثراء حتى اسأمهم ، فهم في شغل بالمال والثراء حين يصبحون وحين يمسون ، وحين يغدون وحين يروحون لا يفرغون من العناية بالمال الا ليعنوا بالترف ، ولا يفرغون من العناية بالترف الا ليعنوا بالمال . يجهلون بالمال في اول الليل ، ويجهلون بالترف في آخر الليل ، وقد يجهلون بالترف حين ينشر الليل ظلمته على الارض ، وقد يجهلون بالمال حين يرسل الفجر ضياءه في الآفاق .

\*

هؤلاء هم اصحاب النعيم يقيمون في مصر الان على كره منهم ، لان تدبير المال يضطرهم الى ان يقيموا في مصر ، ولان الاستمتاع بالترف كما يحبون ان يستمتعوا به قد لا يتاح لهم في غير مصر . ولو قد استطاعوا ان يفارقوا مصر لاتخذوا لانفسهم اجنحة يطرون بها في الهواء ، ويقطعون بها



اجواز الفضاء . . ولكن كيف السبيل الى فراق مصر ،  
وقد ابيح لأجنحة الطائرات ان تحمل الطائرات الى كل  
مكان الا مصر . وقد ابيح لمركات السفن ان تخر البحار  
الا الى مصر . وقد حظر على الطائرات والسفن ، ان أمت  
بمصر ، ان تحمل من اهلها احداً . فقد قضي على المصريين  
جميعاً ، من قدر منهم ومن عجز ، من افتقر منهم ومن  
الستغنى ، ان يتروا في بلادهم لا يبرحونها ، حتى يقضي الله  
امراً كان مفعولاً . اما اصحاب الجحيم . . وما ادراك ما  
اصحاب الجحيم ، فهم الجائعون الضائعون ، والبائسون  
البائسون ، والمأزومون المحرومون ، الذين لا يحفل بهم احد  
ولا يحفلون بانفسهم . ولما عرفت الدنيا وعرفوا معها انهم  
قد ارسوا الى الأرض ، ليتجرعوا فيها الشقاء غصصاً ،  
وليصادقوا فيها الآلام منذ يقبلون على الحياة الى ان  
يخرجوا من الحياة .

كانوا يعدون في نار هادئة مطمئنة تشويهم في اناة ،  
وتنضجهم على مهل ، يبرح بهم الجوع ، ولكنه لا يقتلهم ،  
ويلج عليهم الحرمان ولكنه لا يفيئهم ، ولما يعلقهم بين  
الموت والحياة . فهم يغدون ويروحون ، وهم يقولون  
ويعملون ، وهم ينامون ويستيقظون ، ولكنهم في هذا كله  
لا يفتنون عن انفسهم شيئاً ، ولا يكسبون لانفسهم خيراً ، ولا  
يردون عن انفسهم شراً ، ولا يعصمون انفسهم من مكروه .

\*

واعجب ان شئت ان تعجب .. فقد يستحيل الجحيم الى  
نعيم ، كما يستحيل النعيم الى جحيم . قد يلزم الزبء فيلتي في  
هذه النار الهادئة المطمئنة من الوقود ما يذكيها ويؤججها ،  
واذا لهبها يتلظى ، واذا هي تنتشر في الارض والجو فتحرق  
في غير حساب ، واذا الذين كانوا يُشَوون في تلك النار  
الهادئة ، وينضجون على مهل ، ويُعلقون بين الموت والحياة ،  
تقطع الاسباب بينهم وبين الحياة في غير اناة ولا ريث ،  
وتتصل الاسباب بينهم وبين الموت في غير تمهل ولا رفق .  
واذا هم لا يعلقون في منزلة بين المنزلتين ، وانما يلقون الى  
الموت إلقاءً ، ويتهافتون فيه تهافتاً ، فيخفف عليهم بذلك  
بعض ما كانوا يحملون من اثقال ذلك العيش البغيض .

نعم ، قد يرفق الله باصحاب الجحيم في هذه الدنيا ، فيرسل  
اليهم الموت مسرعاً أو يرسلهم الى الموت مسرعين لتتلقاهم رحمته  
من وراء الموت ، فتجزئهم من بؤسهم في الدنيا نعيماً في الآخرة ،  
ومن شقاءهم في الدنيا سعادة في الآخرة ، ومن جحيمهم الضيق  
المهلك في الدنيا جنات واسعة ، فيها من النعيم ما لا عين رأت ولا  
اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . نعم وقد يُحيل الله  
نعيم الدنيا الى جحيم يمتحن به المترفين فيما ألقت قلوبهم من  
راحة آتمة ، وفيما احبت ضماؤهم من هدوء بغيض ، فيشغلهم  
بالحياة عن الحياة ، او قل يشغلهم بالخوف على الحياة عن  
الحياة ، او قل يشغلهم بحب الحياة عن الحياة ، فاذا هم  
مولهون مفزعون قد دخل الروع عليهم دورهم وقصورهم ،

مملأها ذعراً ورعباً ، ثم اقتحم عليهم قلوبهم وضمايرهم ، فملأها  
جزعاً وهلعاً . واشفاقاً ... فهم لا يفكرون في المال ولا في  
الترف إذا استيقظوا ، ولا يجهلون بالمال ولا بالترف إذا  
ناموا ، وإنما يفكرون في الوباء أيقاظاً ، ويجهلون بالوباء نياماً .  
كلّهم ان يفلتوا من الوباء ما وجدوا الى الافلات منه  
سبيلاً . فهم من هذا الخوف المتصل الملحّ في جحيم ، وهم في  
جحيم آخر لعله ان يكون شراً من جحيم الخوف ، هم  
يجدون في ضمايرهم ، بل في اعماق الاعماق من ضمايرهم ، حسرة  
ضئيلة ، ضئيلة ولكنها ملحة ممضة ، مصدرها اصوات يأتيهم بها  
الجو من كل مكان ، حتى تأخذهم من جميع اقطارهم ، وحتى  
لا تصل الى نفوسهم من الآذان التي تصل منها الاصوات  
الى النفوس فحسب ، وإنما تصل الى نفوسهم من كل طريق . .  
تصل الى نفوسهم من طريق العيون والانوف وسائر الحواس .  
وكل هذه الاصوات تنبئهم بانهم يعيشون في جو من الحسد  
والبغض والحقد والحفيظة والموجدة ، لا ينفقون درهماً ولا  
ديناراً الا احصاه عليهم من حولهم من الناس ، ولا يستمتعون  
بلذة من اللذات الا سجلها عليهم من حولهم من الناس ،  
ولا يطعمون طعاماً ولا يشربون شراباً ولا يتخذون ثوباً  
الا تمنى الناس من حولهم لو اتيح لهم ان يشاركوهم في  
بعض ما يطعمون ويشربون ويلبسون .

جحيم من الفقر والجهل والمرض والموت للكثرة الكثيرة  
من المصريين ، وجحيم من الخوف والذعر والبغض والحسد

للقلة القليلة من المصريين ، و حياة تشبه حياة الأعراف بين هذين  
الجحيمين يحياها فريق من المصريين لم يبلغ بهم الفقر ان  
يبتسوا ، ولم يبلغ بهم الثراء ان يترفوا ؛ فهم مذذبون بين  
اولئك وهؤلاء من اصحاب الجحيمين . هذه مصر التي  
سبقتك اليها منذ شهر وبعض شهر .. فما تفكيرك في العودة  
اليها ، وما حنينك الى ارضها وسمائها ونهرها .. ان ارضها  
تنت الموت في كل لحظة من لحظات الليل والنهار ؛ وان  
نيها يجري بالبؤس والظمأ والجوع ؛ وان سماءها تطر الوباء  
امطاراً وتصبه صباً .

\*

أَمْ حيث انت يا سيدي ... لا تبرح الأرض ولا تعبر  
البحر ، فان من ورائه في مصر هولاً هائلاً ، وشرّاً مائلاً ،  
وبلاء نازلاً ، وعذاباً أليماً . إلا ان تكون من الذين لا يجبون  
الدعة حين تتاح لهم ، ولا يحرصون على الامن حين يساق  
اليهم ، ولا يكرهون ان يلقوا بانفسهم في النار لعلمهم ان  
يستنقذوا منها بعض الذين يحترقون وما أراك من هؤلاء .  
انما أنت ما علمتُ محب للدعة ، لا تعدل بها شيئاً ، كلف  
بالترف ، لا تنسى نصيبك منه مهما تكن الظروف ، كاره  
للمسقة مهما تحفّ ، مشفق من العناء مهما يكن يسيراً ، محب  
للمال على علاته لا ترهد في قليله ولا تسأم من كثيره .  
فما تفكيرك في العودة الى مصر وما حنينك الى ارضها  
التي اصبحت داراً للجحيم ... لا تحذعك الاماني ولا تضلك

الآمال ، ولا يستهوك قول الذين يقولون ان الوباء موكل  
بالبائسين من دون الناعمين ، كلف بالفقراء من دون الاغنياء ،  
فمن مأمنه يُوتى الحذر . ولم يستطع احد الى الان ان يرسم  
للوباء ما ينبغي ان يسلك من طريق ولا ان يحرم على الوباء  
هذه السبيل او تلك . فأقم حيث انت . . فليس لك في مصر  
اربٌ إن كانت لك حاجة الى الامن والدعة والسلامة ، ام  
تراك مشتاقاً الى مجالسك تلك التي كنت تغشاها ايام  
الأمن حين كانت تنوب النوايب وتسلم الخطوب ،  
فتتحدث عما كان وتتنبأ بما سيكون ، وتندرد بما قال هذا  
وفعل ذلك ، وتشفق بما كتبت هذه الصحيفة وتسخر مما  
كتبت تلك الصحيفة ، وتنعم بهذه الحياة الفارغة التي ينعم  
بها المترفون المتبطلون . هيئات هيئات . . أم حيث انت يا  
سيدي ان كنت تريد العافية وتحرص على السلامة ، فان  
بجالسك تلك ما زالت قائمة حافلة بما الفت فيها من اللهو  
والتبطل والفراغ ، ولكن من وراء ما تحفل به من هذا  
السخف خوفاً يملأ القلوب ويفرق النفوس ، وفيها من وراء  
هذا الخوف تلك الحسرة الضئيلة ، الضئيلة التي استقرت من  
الضائر في اعماقها ، والتي تثيرها تلك الاصوات التي تبلغ  
النفوس من طريق الحواس كلها ، فتنقل اليها ان في مصر  
ججياً من الوباء والموت والفقر والجهل والمرض ، وججياً  
آخر من الحسد والحقد والبغض والموجدة .  
أم حيث انت . . لعلك ان تأمن هذين الجحيمين ، وان

استطعت ان تمد اسباب الهرب والنجاة لجماعة من امثالك فافعل ،  
فانهم ليتمنون الهرب ان وجدوا الى الهرب سبيلاً . فاذا  
خمدت جذوة الوباء وانكسرت حدة الشر ، فقد تستطيع ان  
تعود الى مصر وان تستأنف فيها حياة اللهو والتبطل  
والفراغ . فاما الان فليس الى شيء من ذلك سبيل .

## الحرية اولاً

•

تريد ان تنشئ الذوق الفني المصفى في نفوس الشباب  
المصريين ليحبوا الجمال ويدوقوه ، ثم لينشئوا الجمال ويبتكروه ،  
ثم ليضيفوا الى فنهم القديم فناً حديثاً ، ثم ليشاركوا في  
تنمية هذا الترف الفني العالمي الذي يجعل الانسان انساناً ،  
ويحببوا الحياة الى النفوس ، ويجعلوا الدنيا شيئاً ذا خطر  
على رغم ما يحيط بها من هذه الظروف البشعة ، التي تجعلها  
أهون على الرجل الكريم من جناح بعوضة ، لولا ان فيها  
اشياء تتصل بالذوق فتجعل لها قيمة وشأناً ...

تريد ان تنشئ الذوق الفني في نفوس الشباب ، ليستقبلوا  
الحياة راغبين فيها ، محبين لها ، مؤمنين بها ، لا ليقنعوا بما  
تتيح لهم من ارضاء الغرائز ، وقضاء المآرب القريبة ، وتحقيق

الآمال الوضيعة ، بل ليتجاوزوا الحياة الى ما هو ارفع منها  
شأناً ، واجل منها خطراً ، وأسمى منها منزلاً ، وهو الاستمتاع  
والامتع بهذه الثمرات الحلوة التي تجد فيها القلوب راحة ،  
وتجد اليها النفوس روحاً ، والتي تسمو بالناس الى حيث  
ينظرون الى الحياة مزددين لها ، ساخرين منها ، زاهدين فيها ،  
بعد ان كانوا يحبونها اشد الحب ، ويكلفون بها أعظم الكلف ،  
لانهم يرونها قد انتهت بهم الى الغاية وبلغت بهم آخر  
الشوط ، فلا عليهم من ان يتركوها ولا عليهم من أن  
تتركهم ، بعد ان اتاحت لهم ان يستمتعوا ويمتعوا لحظة  
قصيرة أو طويلة بهذا الجمال الذي لا تؤدي وصفه الالفاظ ،  
وانما تجد روعته القلوب فتنسى في ذاته كل شيء ...

ثم تريد ان تنشئ الذوق الفني في نفوس الشباب ،  
ليعرفوا انفسهم وليقدروا وجودهم وليلقوا من يلقون من  
الاوروبيين والاميركيين ، فيتاح لهم ان يتحدثوا اليهم  
ويسمعوا منهم ، وان يفهمهم ما يريدون ان يقولوا ، ويفهموا  
عندهم ما يقولون ، لا يجدون في ذلك مشقة ولا عناء ، وانما  
يجدون فيه راحة ومتاعاً ، ولا يشعرون في اثناء ذلك بما  
يغض منهم في انفسهم ، ويخيل اليهم او يحقق لهم انهم أقل  
من الاجنبي الأوروبي والأمريكي ، علماً بما يجب ان يعلم  
الناس ، وشعوراً بما يجب ان يشعر به الناس ، وتقديراً  
لما يجب ان يقدره الناس ...

\*



تريد ان تنشئ الذوق الفني في نفوس الشباب لتبلغ بهم  
هذه المنازل كلها ، ولتشعرهم بان من حقهم ان يعتقدوا  
بأنفسهم ، ويعتزوا بقديهم وحديثهم ، ويطمحوا الى ما يطمح  
اليه اترابهم من الشباب في الامم الراقية الاخرى ، وهو  
ان يتلقوا عن آباءهم تراثاً كريماً وان ينموه ويزيدوا فيه  
ويدفعوه الى ابناءهم تراثاً كريماً لينموه ويزيدوا فيه ، وان  
يحققوا بذلك لوطنهم ما ينبغي ان يتحقق للوطن الكريم من  
هذه الحياة التي تنمو على مرّ الزمن وتربو على تعاقب الايام ،  
وان يحققوا للانسانية ما ينبغي ان يتحقق للانسانية من هذا  
الرفي المتصل والسمو الممتاز .

تريد ان تنشئ الذوق الفني في نفوس الشباب ، وانا  
ايضاً اريد ان انشئ الذوق الفني في نفوس الشباب ، لأني  
اعلم كما تعلم ان مهمتنا في الحياة إنما هي تشيئ الذوق  
الفني في نفوس الشباب ... على هذه المهمة وقفنا جهودنا ،  
وفي هذه المهمة انفقنا حياتنا ، ولهذا المهمة خصصنا ما بقي لنا  
من حياة . ولكنك تعلم كما اعلم ان شأننا في ذلك كشأن  
ابي العلاء حين تقطعت به الاسباب في بغداد ، فقال هذا  
البيت الذي يراه النقاد قريباً غاية القرب ، وتراه انت وأراه  
انا بعيداً غاية البعد :

فيا دارها بالكرخ إن مزارها

قريبٌ ولكن دون ذلك أهوالُ

يرى النقاد ان أبا العلاء لم يزد على ان تغزل كما تغزل

الشعراء من قبله ومن بعده ، فذكر دار حبيته وذكر المصاعب التي تقوم بينه وبين زيارتها ، وترى انت كما أرى انا ان أبا العلاء لم يكن من الحب في شيء ، وإنما رمز بدار حبيته إلى مطامعه البعيدة وآماله النائية والى تلك العقبات التي تحول بينه وبين بلوغ المطالب وتحقيق الآمال .

فتشبه الذوق الفني في نفوس الشباب يسير كل اليسر ، ولكنه على ذلك عسير كل العسر ، وهو قريب كل القرب ، ولكنه على ذلك بعيد كل البعد ، وأي شيء أيسر وأقرب من ان تمتح الشباب ما ينبغي لهم من الحرية التي تتيح لهم ان يقبلوا وان يرفضوا ، وان يحبوا وان يبغضوا ، وان يفعلوا وان يتركوا ، حين يريدون هم لا حين يريد غيرهم ، وغيرهم هذا كثير لا يكاد يحصى ، منه التقليد الموروث الذي يفرض على الشباب ان يفكر ويعبر ويعمل ويشعر ، كما تلقى ذلك عن اسرته وعن بيئته لا كما تريد نفسه ، ولا كما يريد طبعه ان يفكر ويعبر ويشعر ويسير ، ومنه التقليد الاجتماعي المكتسب الذي يفرض عليه ان يحيا كما يحيا الناس ، ويحظر عليه ان ينفرد او يشذ او يأتي من الامر ما يكره النظراء والأتراب . ومنه السلطان الذي يشرع القوانين ، قاسية مرهقة مقيدة ، ثم يصطنع في انفاذها وسائل أشد منها قسوة وإرهاقاً وتقييداً . حرر الشباب قبل كل شيء ، ولو تحريراً موقوتاً من هذه القيود كلها او بعضها . دعهم يفكروا كما يريدون . ودعهم يحيا كما

يريدون . وارشدهم بالقدوة الصالحة والاسوة الحسنة والنصح  
الرفيق . وثق بانك ان فعلت اعددت نفوسهم للذوق  
الفني الرفيع احسن اعداد واقومه . انك لتعلم ان الفن  
حرية قبل كل شيء ، حرية واسعة الى ابعاد غايات السعة ،  
حرية في نفس المنتج وحرية في نفس المستهلك ، كما يقول  
اصحاب الاقتصاد . خذ من شئت من المبدعين في الفن  
واستقص حياته . فسترى انه لم يبدع الا لانه شذ وانفرد  
وامتاز وخرج على ما ألف غيره من القيود . وليس كل  
الناس ميسراً للفن . وليس كل الناس قادراً على التفوق  
والابتكار . ولكن من حق الناس جميعاً ان تهباً لهم الفرص  
وتمد لهم اسباب التفوق والابتكار . واول ما يجب لذلك  
ان يتاح للشباب ، وللشباب خاصة ، ما ينبغي لهم من الحرية  
التي تفتح قلوبهم وعقولهم وضمائرهم لكل ما في الحياة من  
خير وشر ، ولكل ما في الحياة من حسن وقبح ، ولكل ما  
في الحياة من حب وبغض ، ليقبلوا عن اختيار لا عن اضطرار  
ويلحبوا ويبغضوا عن رضاء لا عن اكراه . فاذا لم تتح لهم  
هذه الحرية ، فلا تتبع منهم خيراً ، ولا ترجُ منهم نفعاً ،  
ولا تنتظر لهم تفوقاً ولا ابتكاراً ، وانما انظر اليهم كما  
تنظر الى الرقيق المسخرين ، والى الحيوان الذي تدفعه  
غرائزه ويحد من حريته سلطان المستأنسين له المنتفعين به ،  
فيما يحاولون من المآرب والاغراض . ان الفن حرية لا  
رق . فاذا اردت من الشباب ان يذوقوا الفن ويسبقوه

ويحاولوه ويبتكروه ، فاجعلهم احراراً ، لان الفن أثر من  
آثار الاحرار لا من آثار العبيد .

\*

أي شيء ايسر من ان تجعل الشباب احراراً .. انك  
لتريد ذلك واني لأريده ، ولكن اي شيء أعسر من ان  
تجعل الشباب احراراً . ان التقاليد الموروثة ، والتقاليد  
المستحدثة ، وسلطان الحكومة ، وسلطان الجماعة ، وظروف  
الحياة ، كلها في هذا الوطن البائس ، تأبى على الشباب ان  
يكونوا احراراً .. فأنشد معي اذن قول ابي العلاء :

فيا دارها بالكرخ ان مزارها

قريب ولكن دون ذلك احوال  
والتمس من العزائم والطلاسم والتائم ما يحميك ويحميني  
من هذه التهمة الكبيرة الخطيرة ، تهمة الميل الى افساد  
الشباب . وأي خطر على حياة الشباب في بلد كمصر ، أشد  
من ان تلتمس له هذه الحرية التي يستمتع بها الشباب في  
غير مصر من البلاد التي الفت الحرية ، فلم تستطع ان تتسلى  
عنها ولا ان تزهد في ثمراتها الحلوة والمرة جميعاً .

ثم لا تنس انك لن تمنح الحرية للشباب حين تضع عنهم  
إصرهم والاعلان التي تثقلهم من التقاليد والظروف ، فقد  
ينبغي ان يعيش الإنسان قبل ان يكون حراً ، وقد ينبغي  
ان يُعصم الإنسان من الحرمان ليعيش ... فحرر الشباب  
من البؤس والجوع وهم التفكير ، فيما يقيم الأود ، وحررهم

من الجهل وأتح لهم علماً وادباً وثقافة ، ويسر لهم بعد ذلك ان يعيشوا في جو سمح غير متحرج ولا متزمت ، وخلّ بينهم وبين الدنيا وما فيها مما يسرّ وما يسوء ، مما يحسن وما يقبح ، مما يلذ وما يؤلم . وثق بأنهم سيحسون ويشعرون ، وثق بأنهم سيرضون ويسخطون ، وثق بأنهم سينعمون ويبتئسون ، وثق بأنهم سيستقبلون هذا كله بانفسهم لا من طريق غيرهم ، وثق بأنهم ان استقبلوا الحياة ولذاتها وآلامها وخطوبها واحداثها ، فسيصورون ما يستقبلون من ذلك وسيعبرون عنه وسيثأرون به وسيؤثرون فيه ، وسيكون كل واحد منهم انساناً حراً عاملاً . وحيثما وجد الانسان الحر العامل ، وجد الذوق الفني ووجدت آثار الذوق الفني من الاستمتاع والامتع جميعاً .

\*

اذهبت الى الجامعة ؟ أشهدت الشباب الجامعيين حين يختلفون الى الدروس ويستمعون الى الاساتذة ، وحين يتحدثون الى اساتذتهم وحين يتحدث بعضهم الى بعض ، أرأيت في هذا كله شيئاً يشبه ما تعرف من شؤون الشباب الجامعيين في البلاد الاجنبية الراقية ؟ ألم تر الى تزمت الاستاذ حين يلقي الدرس وتزمت الطلاب حين يستمعون له ؟ الدرس عبء ثقيل على الاستاذ يتخفف منه بالتفاه في غير حب ولا كلف ولا ذوق . والاستماع عبء ثقيل على الطلاب يتخففون منه ، باحصاء الدقائق وانتظار

الجرس الذي يرد اليهم ظلًا من الحرية ، ويخفي بينهم وبين الانطلاق الى ما هم فيه من سخف الحديث ، وفيما يتحدث البائسون في اشياء لا تتصل بالثقافة من قريب او بعيد ، في اشياء لا تتصل بالعلم ولا بالفن ولا بالذوق وانما تتصل بصغائر الأمور وسفاسفها ... تتصل بالذات القريية والمنافع العاجلة ، وقد تتصل بالسياسة فلا تمس إلا ادناها الى السخف وابعدها عن الغناء ، تتصل بهذه اليوميات التي لا تقدم ولا تؤخر في حياة الجماعات ، فاذا تركوا الجامعة فالى الجهود الضائعة والحياة الفارغة ، الى حرمان المحرومين ، وشقاء الاشقياء ، وصبر الصابرين على المكروه ، ويأس اليائسين حتى من روح الله . فاذا اتيح لبعضهم شيء من اللهو وفضل من المتاع ، فانت تعلم حيث يلتزمون ذلك ، وانت تعلم ما يكون بين ذلك وبين الذوق الفني المتترف الرفيع من صلة ، والخير كل الخير ان نظوي الحديث عنه طياً .

\*

أذهبت الى مدرسة الفنون الجميلة ؟ رأيت الى النقش والحفر والتصوير وغيرها من الفنون ، تلقي الدروس فيها على الطلاب ، كما كانت تلقي عليهم دروس النحو والحساب يدعوم اليها الجرس ، ويصرفهم عنها الجرس ، ويشرف عليهم في اثنائها وفيها بينها نظام دقيق قد رسمت له اللوائح وبينت له الحدود ... فهم يسكنون بمقدار ويتحركون

بمقدار . وهم يسكتون بمقدار ويتكلمون بمقدار - مدرسة  
عسكرية لا اكثر ولا اقل . فكيف تريد للذوق الفني  
المترف الرفيع أن ينشأ او ينمو أو يمتاز في هذه البيئات  
التي لم تخلق إلا لتقتل الذوق أو لتفسده على أقل تقدير ؟!  
وأى شيء ايسر من ان تردّ الى هذه البيئات في الجامعة ،  
وفي مدرسة الفنون الجميلة ، وفي معاهد التعليم كلها ، شيئاً  
من اليسر والاسماح ومن الدعة والحرية ، لأنك تريد ذلك  
ولأنني اريده . ولكن هيهات .. دون ذلك اللوائح والقوانين  
والأمن والنظام والخوف والاغراق في الخوف . نفوس  
الشباب المصريين أشبه شيء بهذا العفريت الذي حبسه نبي الله  
سليمان في قفص مطبق من النحاس الصفيق ، وختم عليه  
بجأته وأمر به فألقي في اعماق البحر ، كما يحدثنا بذلك  
القاص في الف ليلة وليلة . وأجسام الشباب المصريين هي  
هذه القفص المطبقة الصفيقة ، إلا أنها ليست من نحاس وإنما  
هي من لحم ودم . والفرق بين هذه النفوس السجينة في  
قفصها وبين ذلك العفريت ، هو ان العفريت وجد الصياد  
الذي استخرج قفصه من اعماق البحر ، وفض عنه خاتمته ،  
ورفع عنه غطاءه ، وأتاح للعفريت ان يحدث عهداً بالهواء  
والنور والحرية .

\*

فالى ان تجد نفوس الشباب المصريين هذا الصياد الذي  
يخرجها من قفصها ، ويرد اليها الحرية ، ويخلي بينها وبين

الهواء والنور والجمال ، تستمتع به وتمتع به الأجيال ...  
الى أن يوجد هذا الصياد تستطيع ان تتحدث عن الذوق  
الفني المترف الرفيع ، وعن تنشئه في نفوس الشباب  
كما تشاء .



## وَيْلُ السَّجِي مِنَ الْخَلْبِيِّ

عن أية عاطفة صدرت يا سيدي حين كتبت إليّ كتابك هذا الذي تلقّيته منذ أيام ، فلم أدر ماذا اصنع به ولم أدر ماذا صنع بي ! فلو قد استجبت للعواطف الأولى التي أثارها في نفسي ، لمزقته تمزيقاً ، او حرّقه تحريقاً ، او لألقيته في سلة المهملات كما يقول الذين يتبدلون في الحديث . ولكنني اكره ان استجيب للعواطف حين تجيش ، وللغضب حين يثور . فلم امزقه ولم احرقه ولم ألق به بين المهملات . وإنما تركته يوماً وبوماً ثم عدت الى قراءته ، فلم يثر في نفسي إلا ما أثاره اثناء القراءة الأولى من الغضب والحفيظة والموجدة .

ويل الشجي من الخليّ ... انك لرجل ناعم البال ، قير  
العين ، مطمئن القلب ، هادىء النفس ، مستريح الضمير .  
تكتب الى قوم ليس لهم من هذا كله حظ قليل او كثير .  
فهم مروّعون مفزّعون ، قد شمل القلق نفوسهم ، وملاً  
الحزن قلوبهم ، وشاعت الكآبة في ضمائرهم ، حتى ضاقوا  
بالحياة وضّقت بهم الحياة . وشتان ما حال المقيمين فيما وراء  
البحر ، تبسم لهم الشمس المشرقة ويتسمون لها ، ويخنو  
عليهم الليل الهادىء ويطمئنون اليه ، لا تشغلهم بين ذلك  
احداث النهار ولا خواطر الليل ، وإنما هم يستقبلون حياة  
رائقة سائقة ، قد فرغوا فيها لأنفسهم وفرغت فيها انفسهم  
لهم . فهم يرحون ويفرحون ويسرحون ويروحون ... قد  
امنوا كل كيد ، واعتصموا من كل مكروه .  
ولست ازعم ان الحياة من حولك هادئة راضية وناعمة  
باسمة ، فان الهدوء والرضا والنعيم والابتسام امور لا تتاح  
الآن لكثير من الشعوب . ولكنك تعيش غريباً فيما وراء  
البحر ، قد بعدت عن وطنك فلم تشارك اهله فيما يجدون  
من البؤس والشقاء ، ومن الخوف والاشفاق ، ومن القلق  
والاضطراب . وبعدت عن مضيفك لأنك غريب بينهم ، لا  
تشاركهم في ألم ولا أمل ، ولا تشاطرهم نعيماً ولا شقاء .  
وإنما انت قريب منهم بعيد عنهم ، تنعم بما عندهم من نعيم ،  
وتتجافى عما عندهم من بؤس وشقاء .  
فأنت الرجل الحر الطليق ، وانت الرجل الموفق السعيد ،

يأتيك المال كثيراً موفوراً من مصر ، ويأتيك النعيم كثيراً موفوراً من فرنسا ، لأنك تقدر بالمال المصري الذي لا يجده أكثر المصريين ، على ان تحصل من النعيم الفرنسي ما لا يجده أكثر الفرنسيين . فانت ناعم على رغم المصريين والفرنسيين جميعاً . يُستخرج لك المال المصري من شقاء مواطنيك . ويستخرج لك النعيم الفرنسي من شقاء مضيفك .. وانت مع ذلك ساخط على اولئك وهؤلاء ، لا ترضى عما يجري هنا ، ولا تطمئن الى ما يجري هناك . تنكر المصريين لانهم لم يبلغوا في رقيهم المادي والعقلي ما بلغ الفرنسيون ، ولانهم لا يستطيعون ان يوفروا لك من وسائل الترف والدعة والامن ما يوفره لك الفرنسيون .

وانت من اجل ذلك تهجرهم وتهاجر من ارضهم ، وتكتفي منهم بان يزرع الزارع ، ويضع الصانع ، ويجوع الجائع ، وينتس المتس ، ويشقى الشقي ، لتجتمع لك الوف من الجنيات تتبعها الوف ، ولتحول لك هذه المقادير الضخمة من المال ، تنفقها فيما يجب الله وما لا يجب من وسائل الترف .. ومواطنوك في شظفٍ من وسائل الراحة والنعيم ، ومواطنوك في عناء وشقاء .

وتنكر الفرنسيين لأنهم لا يخضعون للسلطان كما يخضع له مواطنوك ، ولا يستكينون للقوة كما تعودت ان ترى الناس يستكينون لها من حواك في مصر ، ولا يعبدون عجول الذهب كما تعودت ان ترى الناس يعبدون عجولاً ذهبية

كثيرة على ضفاف النيل ، كما يقول جوت - ان اتاح لك الفراغ والعبث ان تقرأ ما قال جوت . ولكنك مع ذلك تسعى الى فرنسا كلما امكنتك الفرصة ، وتقيم فيها ما طابت لك الإقامة . يكفيك من اهلها ان يأخذوا منك مالك الذي شقى المصريون ليرسلوه اليك ، وان يعطوك نعيمها الذي يشقى الفرنسيون ليتجوهه لك .

ولو طلب اليك او ابيح لك ان تتمنى ، وان تعرب عملة تتمنى ، لتمنيت وطناً يجمع بين ما تحب من الرقي المادي والعقلي الذي تعجب به فرنسا ، ومن خصال الخضوع للسلطان والاستكانة للقوة وعبادة المال التي تعجب بها في مصر ، ويبرأ من هذه الخصال التي تنكرها هنا وهناك ، وطناً يلائم حبك لنفسك وايتارك لها بالخير كل الخير ، وازورارك بها عن كل ما يكره او يشقّ او يسوء . ولكن أرح نفسك من هذا العناء ، وأعفها من هذه الاماني الكاذبة التي لن تتحقق ، لان تحقيقها شيء ليس اليه سبيل . فحيثما وجد الرقي العقلي والمادي الذي تحبه ، وجد النزوع الذي تكرهه وتنكره الى الحرية الحرة التي لا تبيح لاهلها خضوعاً ولا استكانة ولا اذعاناً لسلطان المال . وحيثما وجد الانحطاط المادي والعقلي الذي تكرهه ، وجد الاذعان والخضوع والاستكانة وعبادة المال والفناء في الثراء ، الى غير ذلك من الخصال التي تعرفها وتألفها وترضاها من مواطنيك .

فانت بين اثنتين يا سيدي ليست لهما ثالثة .. إما ان

تعيش في مصر كما تعيش ، مواجهاً ما تنكر من الضعف  
والقصور والتقصير والانحطاط ، محاولاً كما نحاول اصلاح ذلك ،  
واما ان تعيش في فرنسا مستمتعاً بما يتوق اليه جسمك  
من هذا النعيم المادي الفارغ ، والى ما قد يطمح اليه  
عقلك من هذا النعيم المعنوي الحصب ، محتملاً ما تعيب على  
الفرنسيين من طموحهم الى الخير ، ونزوعهم الى الحرية ،  
ومطالبتهم بالحق ، والتجائم احياناً الى ما يغيظك ويحفظك  
من مظاهر التمرد والغلو في الاضراب ، وحرمانك  
بين حين وحين هذه اللذة او تلك من لذات الجسم والعقل .  
فانت ترى هذه اللذات حقاً لك ، لا ينبغي ان ترد عنه  
ولا ان تجد مشقة في الظفر به ، متى شئت وكيف شئت .  
والفرنسيون يرون مثل ما ترى ، ولكنهم لا يؤثرونك انت  
وامثالك بهذا الحق من دون عامتهم . وانما يريدون ان  
يظفروا به كما تظفر به ، وان يحصلوا عليه كما تحصل عليه ،  
متى شاءوا وكيف شاءوا ، والا يذودهم عنه ذائد من فقر  
او جهل او مرض ، ومن ظلم او بغي او طغيان .  
فاختر لنفسك يا سيدي . وقد اخترت فاحسنت  
الاختيار .. فانت لا تعيش في مصر لأنها لم تبلغ من الرقي  
العقلي والمادي ما تحب . ولكنك تستغل مصر لأنها ترسل  
اليك المال الكثير الذي تشتري به النعيم الكثير . وانت  
لا تعيش في فرنسا لأن اهلها لا يخضعون ولا يخنعون ولا  
يقنعون . وانما تقيم فيها اقامة الغريب تستمتع بخيراتها ولا

تحمل مع اهلها شيئاً من التبعات . انت تحيا على هامش  
مصر ، ولكنك تستمد حياتك من صميمها . وانت تحيا  
وتنعم على هامش فرنسا ، ولكنك تستمد حياتك ونعيمك  
من صميمها . يشقى المصريون والفرنسيون جميعاً لتحيا انت  
وتنعم بالحياة ، ثم لا يجد اولئك ولا هؤلاء منك معونة حين  
تنزل بهم النوازل ، او تلمّ بهم الخطوب ، لأنك قد تركت  
مصر بجسمك وعقلك جميعاً ، وتركت فرنسا بجسمك وعقلك  
جميعاً ايضاً ، وان اقمت فيها وأطلت الاقامة ، لان اقامة  
الغريب في وطن لا تحمّله من تبعات المواطنين شيئاً .

لقد اخترت يا سيدي فاحسنت الاختيار فيما ترى .  
عشت على هامش الوطنين ، واستمددت حياتك وسعادتك  
من صميم الوطنين . ورضيت لنفسك هذه المنزلة ، منزلة  
الطفيلى الذي ليس هو من اولئك ولا هؤلاء ، ولكنه على  
ذلك يستغل جهد اولئك وهؤلاء . وليس كل الناس قادرين  
على ان يرضوا لانفسهم ما رضيت لنفسك ، وليس كل الناس  
يستطيعون ان يكونوا على هامش الحياة في اوطانهم او في  
مهاجرهم . فانعم ان شئت بحياتك هذه التي آثرت بها نفسك ،  
ولكن لا تنكر على غيرك من الناس ان يعيشوا كما يحبون .  
وانظر الى الحياة ان شئت على انها متاع عابث ، او عبث  
ممتع . ولكن لا تنكر على غيرك من الناس ان ينظروا  
الى الحياة على انها جدّ وكدّ ، واحتمال للثقاق ، ونهوض  
ببالاعباء ، ومحاولة للنفع ، وسعي الى الخير ، وجهاد في سبيل

الاصلاح .

أفهمت الآن لماذا تلقيت كتابك ، فهمت ان امرقه او احرقه او اهمله ؟ غاظني ما فيه من سخر بمصر لأنك لا تستطيع ان تجد فيها الفنادق التي تجدها في فرنسا ، ولا تستطيع ان تجد فيها الملاهي التي تختلف اليها في فرنسا ، ولا تستطيع ان تزور فيها المتاحف الفنية الرائعة الكثيرة التي تزورها في فرنسا ، ولا تستطيع ان تنعم فيها بمثل ما تنعم به في فرنسا من ضروب اللهو واللوان المجنون وفنون النعيم .

وغازني سخطك على فرنسا لأن العمال يُضربون فيها فيكثرون الاضراب ، ويضعون عليك من لذاتك المباحة والمحظورة ما انت حريص على تحصيله ، ولأن الاحزاب تختلف فتسرف في الاختلاف وتحتصم فتغلو في الخصومة . وينشأ عن ذلك ما ينشأ من الاضراب والاضطراب والمظاهرات ، وتردد الفرنك بين الرفعة والضعفة وبين الغلاء والرخص . ويؤثر ذلك كله في حياتك المادية بما يحدث فيها من العسر ، وفي حياتك العقلية والشعورية بما يحدث فيها من الخوف والشك والقلق .

ولكن ما رأيك في ان مصر في حاجة اليك والى امثالك ليستنقذوها من ضعفها ، وليبلغوا بها هذا الرقي الذي تجبه وتمناه ... فعد اليها واعمل فيها واعمل لها ، وامنحها وقتك وجهدك ومالك إن استطعت ، ولكنك لن تستطيع ...

فدعها إذن وما هي فيه ، ودع أهلها وما هم فيه ، انك لا تستطيع ان تمنحهم معونة ولا حولاً ولا قوة ، تحول الاثرة بينك وبين ذلك ... فأرحها منك وأرح نفسك منها . خذ ما ترسله اليك من المال ، ولا ترسل اليها مكانه سخرية واستهزاء .

وما رأيك في ان فرنسا لم تخلق لك ولا لأمثالك من الطارئين النازحين الذين يأكلون وينكرون وينعمون ويعيبون . وإنما خلقت لنفسها وأهلها قبل ان تخلق لغيرها من البلاد ، وقبل ان تخلق لغير أهلها من الناس . فخذ منها ما تقدم اليك من ضروب اللهو والمتاع ، وأدِّ إليها ثمن هذا كله من المال الذي ترسله اليك مصر ، وارضَ عن نفسك وأتذكر على فرنسا إن شئت ، ولكن اخف انكارك واجعله شيئاً بينك وبين ضميرك ولا تتحدث به الى الفرنسيين ، ولو قد فعلت لألقوك في غيابات السجن إلقاءً ، او لنفوك من الارض نقياً . لا تتحدث إليّ ، فاني لا احب الذين يأكلون وينكرون وينعمون ويسخطون . واني بعد هذا كله اعجب اشد الاعجاب واقواه بما اجد في الفرنسيين من هذا النزوع الى الحرية ، والطموح الى الكمال ، والتوثب الى الخير .

ويل الشجي من الخليلي ، وويل العاملين من الكسالى ، وويل الجاهدين من القاعدين .  
أرح نفسك من الناس وأرح الناس منك ، وافرغ



لحياتك الفارغة . واذا لم تجد بداً من الكتابة اليّ ، فاكتب  
اليّ بما يرضيني ولا يؤذيني ، فاني لست منك ولا من حياتك  
الفارغة في شيء .. وانا اهدي اليك مع ذلك تحية فيها من  
الثناء لك اكثر مما فيها من السخر منك .

## لا ونعم

•

ان شئت حدثتك بما يرضيك ، فالصديق عند صديقه كل ما يجب . وان شئت حدثتك بما يؤذيك ، فالصديق عند صديقه بعض ما يكره . والناس يخطئون حين يظنون ان الصديق لا ينبغي ان يلقى من صديقه دائماً الا ما يسره ويجبره . فالصداقة نصح وليس النصح حلوأ دائماً . وما ارى الا ان الصداقة أشبه شيء بالفلسفة ، في رأي أفلاطون . . لا تحصل للحلاوة الحلوة ، ولا تحصل للمرارة المرة . وانما هي شيء بين ذلك يحلو ويمر ، ولعله يحلو ويمر في وقت واحد .

فلك عندي اذن ما يسرك ، ولك عندي اذن بعض ما يسوءك . ولقد رضيت عنك امس كل الرضى في اول الضحى ،

وسخطت عليك امس كل السخط حين اوشك النهار ان  
ينتصف . ولقد هممت ان اطوي عنك ما ارضاني وما اسخطني  
جملة ، او ان اطوي عنك ما ارضاني وما أسخطني حتى  
الفاك ، فنستأنف ما تعودنا ان نستأنف من الحديث الحر  
السمح كلها التقينا . ولكنني اشقت ان لقيتك الا اصارك  
بما في نفسي من لوم لك ووجد عليك .. فأنت رجل حلو  
المحضر ، عذب الحديث ، خلاب جذاب ، ماهر الجدد ،  
حلو الدعابة ، تشغل محدثيك بمحاسنك الكثيرة عن عيوبك  
القليلة ، وتلهيهم بالاستماع لك والاعجاب بك عن التحدث  
اليك ، فكيف بالعتب عليك . ولقد سألت نفسي وأطلت  
سؤالها ، وتستطيع انت ان تسأل نفسك وتطيل سؤالها .  
فما رأيت وما احسبك ستوى اني واجهتك قط بلامة او  
عتاب . انما اواجهك دائماً بالثناء والتقريظ وبالاكبار  
والاعجاب .. فان انكرت منك شيئاً طويت عنك انكاري  
في أكثر الاحيان ، وكتبت اليك ببعضه في اقل الاحيان .  
فخذ كتابي هذا على انه من الكتب القليلة التي ارسلها  
اليك . فلا تكاد تتلقاها حتى تعلم انها تحمل اليك لوماً او  
عتباً او نكيراً او دعابة لا تخلو من مرارة مرة . وقد انبأتني بانك  
تتلقى هذه الكتب فتضيق بها اول الامر وتتثاقل عن قراءتها  
ولكنك على ذلك تضعها منك غير بعيد ، وتحتلس اليها نظرات  
فيها الرغبة وفيها الرهبة ، فيها الطمع وفيها الخوف ، وقد اليها  
يداً تقدم لتجهم وتنسبط لتنبض ، ثم تندفع مغامرة

فقتض العلاف في عنف يكاد يفسد ما وراهه ، ثم تلتهم عينك ما في الكتاب التهاماً . فاصنع بهذه الرسالة ما تعودت ان تصنع بامثالها او تعجل قراءتها ، فانت وما تريد من ذلك . ولكني واثق بانك ستجد فيها إخاء الأخ العطوف ، ووفاء الصديق الحميم . ومهما تثقل عليك قراءتها الأولى ، فستخف عليك قراءتها الثانية ، لأنني اعلم انك ستقرأها مرتين ، ولعلك ان تقرأها اكثر من مرتين . لقد كنت رائعاً امس في اول الضحى مروعاً في آخره .

\*

كنت رائعاً حين كنت تتحدث الينا عما امتازت به نفس غاندي من العزة السمجة والاباء الوديع ، وحين كنت تحدثنا بان جمال الحرية ، وجمال الكرامة ، وروعة العزة والاباء . خصال يظهرها اللين اكثر مما يظهرها العنف ، ويجليها الأمن اكثر مما يجليها الخوف ، لأنها لا تستكمل خصائصها الا حين تظهر متحضرة مترفة مجلوة من كدر الغرائز ووضر الطبائع الغلاظ .

والعنف يخرج الانسان عن طوره ، ويرده حيواناً لم تهذبه الحضارة ، ولم يصف طبعه ادب او فن ، ولم يتق ضميره علم او فلسفة او دين . فحرية الانسان العنيف في اوقات السلم والحرب ليست من الحرية الصحيحة في شيء . وانما هي الغرائز المندفعة والطبائع الجاحمة والثورة المدمرة التي لا تبقي على شيء ، وليس يعنينا ان تبقي على شيء

لأنها لا تصدر عن قلب ذكي ، ولا عن ضمير نقي ، ولا  
عن عقل رفيع نفاذ . إنما هي شيء يشبه عصف الريح ،  
وقصف الرعد ، وهياج البركان . فاما الحرية الحرة حقاً ،  
الحرية الحُصبة المنتجة ، الحرية الرائعة التي لا تكاد تظهر حتى  
تملأ القلوب شعوراً والنفوس نوراً ، فهي هذه الحرية المروية  
المستبصرة التي تتأثر بالتفكير والذكاء حتى كأنها هي التفكير  
والذكاء . وكنت تحدثنا بان الانسان الكامل في حريته  
وعزته وابائه ، يمكن ان يُختصر كله على ما فيه من عسر  
وتركيب وتعقيد في كلمة واحدة قصيرة يسيرة ، ولكنها  
على ذلك شاملة خطيرة ، وهي كلمة « لا » .

وكنت تقول ان كلمة « لا » هذه كنز لا يفنى ،  
وليس الى فوائده سبيل ، لأن حول الانسان من ضروب  
التغيب وألوان الاغراء والدعاء ما لا سبيل الى احصائه ،  
ولأن ما يلائم عزته وكرامته من هذا كله اقل من القليل .  
فالانسان الحر الكريم هو الذي يستطيع ان يقول بقلبه  
وضميره وعقله ولسانه : « لا » .. يقولها لكل ما يدعوه  
او يعغبه او يرغبه فيما لا يلائمه من عمل او قول او سيرة  
او تأثر او تأثير . يقولها حين تدعوه المائدة الى ان يأكل  
اكثر مما ينبغي ، او الى ان يشرب اكثر من طوقه ،  
ويقولها حين يدعوه الجمال الى فتنة الحس ، ويقولها حين  
تدعوه القوة الى الطغيان والبطش والظلم ، ويقولها حين  
يدعوه الضعف الى الاستكانة والاذعان والذل ، ويقولها

حين يدعو الثراء الى الطمع والجشع والبخل ، ويقولها حين يدعو الاعدام الى السؤال والاحاف والسرقة والمكر ، ويقولها حين يدعو السلطان والجاه الى الاثرة والاستئثار والمحابة ، ويقولها حين يدعو التفوق والامتياز الى الاستكبار والغرور . وكنا نستمع لك معجبين بك ، وقد اتصلت عقولنا بعقلك ، وقلوبنا بقلبك ، وتعلقت نفوسنا بشفتيك . وما ارى الا انك قد اخذت ترضى عن نفسك وتعجب بها ، حين بلغت من قراءة رسالتي الى هذا الموضوع ، ففيمك شيء من الضعف للثناء عليك ، يدعوك الى شيء من العجب والتهيه حين تحس الاعجاب بك والرضا عنك .

\*

وما ارى الا انك قد وضعت الكتاب حين بلغت منه هذه الجملة ، فاستأنيت شيئاً ، ومددت بصرك امامك ، كأنك ذاهل بعض الدهول . ثم انخرفت الى يمين ، فألقيت نظرة سريعة خاطفة على هذه المرأة التي تقوم غير بعيد من سريرك .. فانت تقرا كتابي هذا في غرفة نومك ، لانك لا تخرج منها الا بعد ان تفرغ من الصحف ، وتقرأ ما يحمل اليك البريد . ثم انت تعود الى الكتاب فتقرأه من اوله ، تريد ان تتذوق ما فيه من ثناء عليك وتقريب لك ، كأنك تجد في هذه القراءة المعادة ، او كأنك تستمد من هذه القراءة المعادة ، شجاعة تعينك على المضي في الكتاب الى آخره ، وعلى استقبال ما ينتظرک فيه من

ملامة وعتاب .

كنت اذن تحدثنا ، فتروعنا بالفاظك العذبة ، ومعانيك الساحرة ، وفضلتك البارعة ، وعقلك النافذ إلى اعماق الحياة ، ولكن التليفون يدعوك ، فلا تكاد تستجيب لمن يتحدث اليك من أقصى الحيط حتى يضعف صوتك بعد قوة ، ويلين بعد شدة ، ويتهاك بعد امتناع وإباء . وقد عرفنا مما سمعنا من كان يتحدث اليك من أقصى الحيط ، فكنا نكر ولكننا لم نفعل ، وإنما أحسنًا بك الظن ، وقد رنا انه حسن العشرة وجمال الادب ورقة الحاشية وترف الذوق . ومضيت في حديثك عن كلمة « لا » هذه ، تبين لنا تصويرها لحرية الفرد ، وتبين لنا تصويرها لحرية الجماعة ، وتبين لنا تصويرها لحرية الشعب ، وتوازن بينها وبين كلمة « نعم » حين تكثر منها نفس الفرد ولسانه ، فيتورط في الموبقات التي تضمنه ، وحين تكثر منها نفوس الجماعات وألسنتها فتعرض للذلة والهوان ، وحين تكثر منها سيرة الشعب فيتعرض للظلم والاستبداد ، وحين تكثر منها سيرة الحكومات فتعرض للعدوان والاستعمار .

وانت تضرب لهذا كله الأمثال من حياة المصريين ، ومن حياة غير المصريين ، فيما كان من امرهم ، وفيما هو كائن . وانت تمنى علينا ان نعلّم المصريين كلمة « لا » وان نذيعها في بيئاتهم مها تختلف ، وفي طبقاتهم مها تتفاوت لعلمهم ان يجمعوا عليها فتسلم لهم حريتهم وكرامتهم ، ولعل

حكومتهم ان تؤمن بها، وتنطق بها، وتصر عليها ، فتسلم  
لمصر سيادتها واستقلالها .

ولكن حاجبك يقبل فينبئك بمقدم الوزير . واذا انت  
تحفّ في غير اناة ، وتسرع في غير وقار . وينظر جلساؤك  
اليك مسرعين ، ثم ينظر بعضهم الى بعض متباينين متسائلين .  
ثم تشور في نفوسهم وقلوبهم خواطر متباينة وعواطف  
متناقضة لست في حاجة الى ان أجلوها لك أو اعرضها  
عليك . فقد قد أكثرهم سيرتك ، فخف في غير اناة  
واسرع في غير وقار . واذا انتم جميعاً تهرعون لاستقبال  
الوزير . وصدق أقلهم مقاتلك فتمهل واستأنى ولبث في  
مكانه . حتى إذا اقبل الوزير قام في أدب ، وتلقى تحيته  
في احتشام ، وردّها اليه في ظرف ، وعاد إلى مجلسه في  
وقار .

\*

وأنت تذكر بعد ذلك ما كان من سيرتك وسيرة  
جلسائك مع الوزير ، وما كان من سيرة الوزير معك ومع  
جلسائك ، منذ اقبل الى ان انصرف . وأنت تذكر ما  
كان من خفتكم لتشييعه في غير اناة ، ومن اسراعكم  
الى مرافقته في غير وقار ، ومن عودتكم بعد ذلك  
وعلى ثغوركم ابتسام خير منه العبوس ، وفي وجوهكم  
اشراق خير منه الاظلام . ولكن في ألسنتكم انعقاداً أفصح  
من الكلام ، لأن قلوبكم كانت مستحلية ، ولأن ضمائركم



كانت مستخذية ، ولان غشاء رقيقاً من الكآبة الفاترة  
 كان يقوم دون عقولكم ، فيمنع نورها ان ينفذ الى  
 خارج ، ويمنع نور الحياة والحرية ان ينفذ اليها . والحمد لله  
 على ان قلوبكم ما زالت شاعرة تجد الحياء ، وعلى ان  
 ضمائرکم ما زالت نقيّة يظهر فيها كدر الاستخذاء ، وعلى ان  
 عقولكم ما زالت صافية تغشاها الكآبة بين وقت ووقت ،  
 حين ترى ما لا يجمل بكرام الناس . فليس يجمل بكرام  
 الناس ان يجبوا كلمة « لا » اذا خلوا الى انفسهم ، وان يقولوا  
 « نعم » اذا لقوا اصحاب الجاه والسلطان . وليس يجمل  
 بكرام الناس ان يتحدثوا حديث الاحرار ويسيروا سيرة  
 العبيد ، وليس يجمل بكرام الناس ان يناقضوا الى هذا  
 الحد بين ما يعتقدون في دخائل نفوسهم واعماق ضمائرهم ،  
 وما يظهرون من سيرتهم حين يعاشرون امثالهم من الناس .  
 فالوزير يا سيدي رجل مثلك مهما يكن حظه من القوة  
 والسلطان ، ومهما يكن حظه من الذكاء والحذق ، ومهما  
 يكن حظه من التفوق والنبوغ ... هو رجل مثلك ،  
 خلق من تراب وسيعود الى تراب ، يأكل كما تأكل ،  
 ويشرب كما تشرب ، وينام كما تنام ، ويستيقظ كما تستيقظ ،  
 ويسعى بين الناس كما تسعى انت بين الناس ، ويخلو الى  
 نفسه كما تخلو انت الى نفسك ... فحقه عليك كحقك عليه  
 لا ينبغي ان ينقص ولا ينبغي ان يزيد .  
 استغفر الله ، بل حقه عليك اقل جداً من حقه عليه ،

لأنك قد نصبته لخدمتك ، وكلفته النهوض ببعض امرك ،  
وأجرته على ذلك اجراً يقبضه في كل شهر ، حين يأخذ  
مرتبته هذا الضئيل ويقبضه في كل يوم وفي كل ساعة وفي  
كل لحظة ، يستمتع بما تحيطه به الدولة من مظاهر السلطان  
والجاه .

فاما هو فلم ينصبك لشيء ، ولم يكلفك شيئاً ، ولم  
يأجرك على شيء ، وليس له عندك الا ما للانسان عند  
الانسان من الرفق الرفيق ، والمعاملة الكريمة ، والادب  
الجميل . ولعمري لئن عجزت عن ان تمسك على نفسك إباءها امام  
وزير ، انت شاركت في جعله وزيراً ، لتعجزن أشد العجز  
واشنعته حين تغريك المغريات ، وتخوفك المخوفات .. وما اكثر  
ما في حياة الناس ، وفي حياة امثالك خاصة ، مما يغري  
ويخيف . وعزيز علي ايها الصديق الكريم ان اسوءك بقول  
او فعل ، ولكن الصداقة نصيحة قبل كل شيء ، ولم ينصح لك  
من ابدى لك ما يسرك ، واخفى عليك ما يسوءك .

\*

فاستقبل امرك ذكياً تقيماً ابياً ، واجتهد في ان ترى  
نفسك كما اراها ، فتعرف منها مثل ما اعرف ، وتتكبر منها  
مثل ما انكر . واذا تعلقت علي بما تتكبر من امري ،  
فافرض على نفسك من النصيح لي والعنف بي ، مثل ما افرض  
على نفسي في ذلك . واذكر ان قوماً كانوا في الدهر  
يصنعون الاصنام ليعبدوها ، وان الزمن قد تقدم وتقدم

واصبح مما لا يلائم كرامة الناس ان يصنعوا الوزراء  
ليقدموا اليهم الطاعة والخضوع .

## صَحَاحُ الْأَنْبَاءِ

في اي انباء مصر تريد ان اكتب اليك ايها الصديق  
الكريم ؟ فيما يرضيك ويلهيك ؟ ام فيما يؤذيك ويضنيك . . ؟  
فعندي وعند كل مصري من هذه وتلك اطراف . امرنا في  
ذلك كأمر غيرنا من الناس في غير مصر من البلاد . فعند  
كل انسان مهما يكن ، ومهما يكن بلده ، انباء تسرّ وتلهي وانباء  
اخرى تسوء وتؤذي ، لان حياة الناس كلهم في عصورهم كلها وفي  
اوطانهم كلها مزاج من الجد والعبث ، ومن الخير والشر ،  
ومن اللذة والالم ، ومن الحزن والسرور .

في اي انباء مصر تريد ان اكتب اليك اذن ؟ ! اما ان  
كنت راضي العيش ، ناعم البال ، مطمئن القلب ، فقد ينبغي ان  
اكتب اليك في انباء مصر التي تحزن بعض الحزن ، وتنقص

بعض التنغيص ، ليعادل ما تحمل اليك من المساءة بعض ما  
انت فيه من المسرة . واما ان كنت ضيق النفس ، كئيب  
الضمير ، محزون القلب ، فقد ينبغي ان اكتب اليك فيما  
يسليك ويلهيك ، لتجد فيما يلقاك من ذلك راحة تخفف ما  
انت فيه من جهد ، وسروراً يلف ما انت فيه من حزن ،  
ورضا يردك الى ما ينبغي لك من اعتدال المزاج .. ولكن  
لا اعرف من امرك شيئاً ، وقد انقطعت رسائلك عني منذ  
شهر وبعض شهر . ورسائلك لا تنقطع الا حين تشغلك السعادة  
أو حين يشغلك الشقاء . فأنت رجل تؤثر نفسك بما يتاح لك  
من الخير وبما يعرض لك من الشر ، ولا تفكر في اصدقائك  
ولا تكتب اليهم الا حين تفرغ من السعادة والشقاء جميعاً ،  
وتضطر الى هذه الحياة الهادئة التي تضيق بها وتضيق بك ،  
فتسلى عنها وتسليها عنك بالتفكير في الاصدقاء والسعي الى  
لتأهمهم إن كانوا قريباً منك ، والكتابة اليهم إن نأت بهم  
عك الدار .

\*

فانت في هذه الاسباع الكثيرة التي لم تصل إليّ فيها  
رسائلك ، مشغول عني وعن غيري بنعمة سبقت اليك او نعمة  
صبت عليك . وانا من اجل ذلك حائر في امرك وامري ،  
اخشى ان نكون سعيداً فيشغلك كتابتي عن سعادتك ،  
واخشى ان تكون شقيماً فيكون في تأخير الكتابة اليك  
شيء من التصير في ذاتك والتفريط فيما ينبغي لك من الحق

عليّ ، ان نابتك النوائب او أمت بك الملمات . وما اكره  
ان تستأثر بما يتاح لك من الخير لاني احبك ، وما اريد  
ان تستأثر بما يعرض لك من الشر لاني اسئق عليك . فيخذ  
كتابي إذن كما هو وانظر في اوله ، فان كنت سعيداً فدعه  
حتى تفرغ من سعادتك او تفرغ منك سعادتك . فليس من  
هذا بد ، لأن سعادة الناس في هذه الحياة سحابة صيف لا  
تظلّ إلا لتتقشع ، ولا تلمّ إلا لتزول . وان كنت شقيماً  
فاستعن به على دفع ما يعشاك من الشقاء .

\*

وفي أبناء مصر والحمد لله ما يسلي المحزون عن حزنه ؛  
وينغص على السعيد سعادته ، ويدعو الرجل العاقل الاريب  
الى اطالة التروية والامعان في التفكير .  
لقد بعد عهدك بمصر أيها الصديق الكريم ، وطبال  
فراقك لها ، وقد جدت فيها امور وحدثت فيها احداث ،  
غير تلك الامور وهذه الاحداث التي تنقلها اليك الصحف  
التي تصدر حيث تقيم والتي تأتيك من حيث نقيم نحن ، لان  
الصحف لا تنقل من الاحداث والانباء الا ظواهرها . فأما  
حقيقتها ودقائقها واسرارها ومضارها ، فليست من الصحف  
في شيء ، وليست الصحف منها في شيء . وما اكثر  
الانباء التي تروى في الصحف قد رواها الكتاب عن غير  
فهم ، وقرأها القراء عن غير فهم ايضاً ، وتحدث بها  
المتحدثون وذهبوا في تأويلها المذاهب عن غير فهم كذلك ،

لانهم عرفوا ظواهرها وجهلوا حقائقها ، ولان الصحفيين  
لا يكتبون التاريخ ، تعجلهم عن ذلك مهنتهم التي تضطرهم  
الى الاسراع ، والى النظام ، والى ان يملأوا صحفاً بعينها  
في اوقات بعينها ، لا ينبغي ان يسبقوها ولا ينبغي ان  
يتأخروا عنها . فهم معجلون مها يتمهلوا ، وهم مسرعون  
عها يستأنوا ، وهم مقصرون مها يتكلفوا من البحث  
والاستقصاء .

\*

وقد قرأت في الصحف ونقل اليك الناقلون من غير  
شك ان في مصر نظاماً مبتكراً لا يعرفه بلد من بلاد  
الارض ، وهو توكيل الشرطة بالجامعات ومعاهد العلم  
تجرسها حين يسفر الصبح ، وتجرسها حين يظلم الليل ،  
وتجرسها بين ذلك حين تستوي الشمس في كبد السماء ،  
وحين يبسط الظلام سلطانه الرهيب على الكون . وزعم لك  
بعض الصحف ، وقال لك بعض القائلين ، ان هذا النظام  
المبتكر البديع قد اريد به الى حصار الجامعات ومعاهد  
العلم ، حتى لا ينفذ اليها احد من غير اهلها ، مخافة ان  
يشغل الجاهلون طلاب العلم عن علمهم . وزعمت لك صحف  
اخرى ، وقال لك قائلون آخرون ، ان هذا النظام  
المبتكر البديع انما اريد به الى حماية الجاهلين الغافلين  
من المعلمين المتنبهين ، مخافة ان ينتشر الجامعيون والمتفقون  
في الارض ليملاؤها شراً بعد ان ملئت خيراً . وقال لك

اولئك وهؤلاء ان في هذا النظام المبتكر البديع عبثاً  
بالحرية وتضييقاً على الناس في حياتهم ، فبين الجامعيين  
والمتعلمين وبين الجاهلين والغافلين صلات يجب ان ترعى  
وعرى يجب الا تنفصم ، صلات الابوة والبنوة والانشاء ،  
وصلات الرحم والقرباة والمودة . وكل هذه خصال لا ينبغي  
ان تقطع لان الله أمر بها ان توصل ، فهذا النظام شر ،  
وهذا النظام نكر ، وهذا النظام بغيض ، الى آخر ما  
قيل والى آخر ما سيقال ، ما دام هذا النظام المبتكر  
البديع قائماً ، وما دام الصحفيون يكتبون عن غير استقصاء ،  
وما دام الناس يقولون بغير علم ، ويخوضون فيما لا يحسنون  
الخوض فيه ، ودعني استعز من ابي العلاء بيته المشهور :

غدوت مريض العقل والدين فالتفتي

لتسمع أنباء الامور الصحائح

\*

وأنا اعلم انك لن تسعى الى لقائي ، لانك تؤثر غربتك  
وتألف ما انت فيه من كسل . فأنا اسعى الى لقائك بهذا  
الكتاب ، لأسمعك انباء الامور الصحائح عن رغبة منك فيها  
او انصراف منك عنها ، فما احب لك ان تجهل مع الجاهلين  
وتخطيء مع الخاطئين . وقد علمت ان مصر ما زالت سبابة  
الى الخير ، نفاذة من المشكلات ، حلاله للالغاز ، فقد  
استكشفت مصر في هذه الايام الشداد ان العلم ينفع ويضر  
ويحسن ويسيء ، ينفع اذا استأثر به العلماء الذين يحسنون



فهمه وتصريفه ، ويضر اذا خلص الى الجهلاء او خلص اليه  
الجهلاء الذين لا يسبقونه ولا يعقلونه ، ولا يحسنون التمثل له  
والانتفاع به .. شأنه في ذلك شأن السلاح الخطر الذي لا  
يحسن استعماله الا من كان به خبيراً ، وشأن العقاقير الخطرة  
التي لا ينبغي ان يُخلى بينها وبين الذين لا علم لهم بالطب  
وطبائع الامزجة والاجسام . وما رأيك لو ابيحت القنابل  
الذرية للناس جميعاً ، وما رأيك لو اصبحت الوان السم الزعاف  
قريبة المتناول من ايدي الناس جميعاً . فالعلم أشد خطراً  
من القنابل الذرية لانه يبتكرها ، وهو أشد خطراً من السم  
الزعاف لانه ينشئه ويركبه ويقدر حظه من كل دواء .

\*

وقد لاحظت مصر في هذه الاعوام الاخيرة ان قليلاً  
من علم العلماء قد خلص الى جهل الجهلاء ، ففسدت لذلك  
امور الناس واخلاقهم وصلاتهم واحكامهم على الاشياء وتصورهم  
للحياة . فشكا من لم يألّف الشكاة ، وسخط من لم يعرف  
السخط ، ورضي من لم يكن له حظ من رضا ، وأمن  
من لم يكن ينبغي له الامن ، وخاف من لم يكن للخوف  
اليه سبيل .

ونظرت مصر فاذا اهلها ساخطون صاحبون قلقون  
مضطربون ، لا يرضون عن شيء ولا يرضى عنهم شيء ، قد  
عبسوا للحياة وعبست لهم الحياة ، حتى انكرتهم شمسه  
المشرقة ، وانكروا هم شمسه المشرقة ، حتى ضاق بهم

تيلهم الهادىء السمع ، وود لو تحول عن واديهم فشق  
مجره في الصحراء حتى لا يرى هذه الوجوه العابسة ، وهذه  
النفوس المظلمة ، وهذه القلوب التي بعدَ عهدا بالاطمئنان .

\*

هنالك التمسّت مصر هذه الآفات الطارئة اسبابها وبجثت  
عن مصادرها ، فلم تجد لها سبباً ولا مصدرّاً الا هذه المعرفة  
التي تنسل من الجامعات ومعاهد العلم ... فتلمّ بالاندية  
والدور ، وقد تتسكع في الشوارع والحقول ، فتصادف عقولاً  
خلقت للجهل والغفلة ، وقلوباً خلقت للجمود والهمود ، فتفسد  
على الناس امورهم كلها . وليس احب الى مصر من ان  
يكون أهلها أحراراً ، وليس احب الى مصر من ان  
يكون أهلها علماء ، ولكن الحرية والعلم من هذه الاشياء  
الخطرة التي لا ينبغي ان تعطى للناس بغير حساب ، وإنما  
يجب ان تقطر لهم تقطيراً وتقدر لهم تقديراً ، ويقتر عليهم  
فيها تقديراً . من اجل ذلك ، ومن اجل ذلك وحده ، آثرت  
مصر سلامة ابناءها من ان يسرفوا على انفسهم في العلم ، وما  
يستتبع من الحرية وتنبه الشعور ، فندبت شرطتها وجيشها  
لحمايتهم من هذا الخطب الملمّ والوباء المييد .

لهذا ، ولهذا وحده ، ضرب حول الجامعات ومعاهد  
العلم بهذه الاسوار الكثاف الصفاق من قوة الشرطة والجند  
حمايةً للجاهلين من علم العلماء ، وحمايةً للعالمين من جهل  
الجهلاء ، فمخالطة الجهلاء خطر على المتعلمين ، ومخالطة العلماء

خطر على الجاهلين ، والدولة الرشيدة الحازمة خليقة ان تفرق  
بين أولئك وهؤلاء ، وألا تصل بينهم الاسباب الا بمقدار .

\*

وقد لاحظت مصر ان هذه القصة ستثير لها مشكلة من  
أشد المشكلات عنفاً واعظماً تعقيداً ، فشرطتها محدودة ،  
وجيشها محدود قليل العدد ، وهما لا يكفیان لحماية الناس  
من علم العلماء وعدوان المعتدين ، وانما يكفیان لحماية من  
احد هذين الشرين لا منهما جميعاً . ففكرت ، وقدّرت ،  
ودبرت ، ورأت ان شر العلم اشد خطراً من شر العدوان ،  
فالجرم الواحد او المجرمون الكثيرون يصيبون الشخص  
الواحد او الاشخاص في الاماكن النائية والمواطن المتباعدة  
على حين تفسد القطرة الضئيلة من العلم والمعرفة عقولاً وقلوباً  
كثيرة لا يبلغها العدد . من اجل ذلك نقلت اليك الصحف ،  
وقال لك القائلون ، ان امور الأمن تضطرب في مصر بين  
حين وحين ، فيصرع هنا قاض ، ويخطف هناك معلم ،  
وتسرق دار في هذه المدينة او تلك ، وتقع موقعة في  
قرية من قرى الشمال أو من قرى الجنوب ... لا ينشأ  
هذا عن تقصير من اولى الامر ، ولا عن تقريط في جنب  
الامن ، وانما ينشأ هذا عن موازنة بين ألوان الشر ،  
واختيار لأخف الضررين ، واذعان لاحكام الضرورات الملجئة ،  
والناس ساخطون دائماً ناقدون دائماً ، تطول ألسنتهم فتسرف  
في الطول ، وتجمع اقلامهم فتغلو في الجحجح ، وتحميهم

الدولة من العدوان فيشكون من انتشار العلم ، وتحميمهم الدولة  
من انتشار العلم فيشكون من انتشار الاجرام ، وينسون  
قول الشاعر القديم :

إذا لم يكن إلا الأسنه مركباً  
فلا رأي للمضطرب الا ركوبها

\*

هذه يا سيدي بعض الانباء الصحائح التي أشار اليها  
ابو العلاء ، وما اكثر الانباء الصحائح في هذه الايام ، وما  
اقل فهم الناس لها وتعمقهم لحقائقها ، وما اجدرني بان احدثك  
بالوان منها ، لتعلم اين نحن وأين أنت ، ولتوازن بين حياتك  
المطرده وحياتنا المضطربة . ولكن اعلم انك لا تريد أن  
توازن ولا ان تقيس على ان تعرف من امرنا شيئاً ، وما  
أنت وحياتنا هذه الحُصبة التي تتعب وتشق لكثرة ما فيها  
من الحُصب الذي يغزو القلوب والعقول . ألم تحدثني في آخر  
كتبك إليّ بانك تؤثر نعمة الجهل على شقاء العقل ... فانعم  
بجهلك حيث انت ، ودع لنا ما نحن فيه ، وتقبل تحية كلها  
رثاء لك واشفاق عليك .

## افران الصفاء

لم أضح بكتابك حين تلقيته ولا حين قرأته ، لاني  
تعودت في هذه الاعوام الاخيرة ان اتلقى امثاله في غير  
ضيق ، وان اقرأها في غير ملل ، وان انشد بعد قراءتها  
قول ابي العلاء رحمه الله :

وإذا اضاعتني الخطوب فلن أرى

لوداد اخوان الصفاء مضيعة

خاللت توديع الأضادق للنوى

فمتى اودّع خليّ التوديعا

ولا يثقل عليك هذا البيت الثاني وما فيه من تكلف ،

قلابد من ان تقبل الشعراء على علاتهم . وعلة ابي العلاء

انه عاش في عصر تكلف وتصنع ، فلم يكن له بد من

ان يتكلف ويتصنع . وقد اراد ان يذكر كثرة توديعه  
للاصدقاء وضيقة بفراقهم ، وان يتمنى على الدهر ، لو ان  
الدهر يستجيب لمن يتمنى عليه ، ان يريجه من الوداع وما  
يشير في القلب من الحزن والأسى ، وما يغمر النفس به من  
اللوعة والاكتئاب ، فسلك الى معناه القريب طريقه هذه  
البعيدة ، وزعم ان توديع الاصدقاء قد اصبح له صديقاً بغيضاً  
وذاً لو يخلص من صداقته وعشرته .

فأقبل لفظ ابي العلاء كما تيسر له وكما تنقل اليك ،  
وقف عند معناه فانه خليق ان تقف عنده ، لانه يصور  
نفساً كريمة ، وقلباً ذكياً ، وضميراً وفياتاً ، وحرصاً اشد الحرص  
على الوفاء . وهو على ذلك يصور ذات نفسك وذات نفسي  
في شيء من القصور لا من التقصير . فكلانا حريص مهمل  
تضعه الخطوب على ألا يضيع ود الاصدقاء ، وكلانا يجد في  
استبقاء المودة والاحتفاظ بالاخاء راحة وروحاً ، ولذة ومتاعاً ،  
ولكن كلينا ممتحن ، لا بكثرة التوديع للاصدقاء للنوى ،  
ولكن بكثرة التوديع للاصدقاء للموت ، او للقطيعة التي  
هي شر من الموت . فأنت لا تفقد صديقك الذي يستأثر  
به الموت من دونك ، او قل انك لا تفقده كله ، وإنما  
تفقد محضه ، وتحرم لقاءه ، وتبقى لك منه ذكرى فيها  
كثير من حسرة وأسى ولكن فيها كثيراً من دعة النفس ، ورضى  
القلب ، وراحة البال . تحزن لانك لا تلقاه ولا تنعم بعشرته ،  
وترضى لأنك تذكر صفاء مودته وصدق إخائه ، وانه قد وفى

لك وانك قد وفيت له ، وانه قد فارقتك راضياً عنك وانك قد فارقتك راضياً عنه ، فتجد في هذا الشعور شيئاً من عزاء ، وتضيف هذه الذكرى الى هذا الكنز النفيس الذي يعنى به قلبك ، وتنعم به نفسك ، وتستريح اليه كلما ضاقت بك الدنيا او كربتك الخطوب .

فأما القطيعة فانها لا تترك في قلبك الا الحسرة الخالصة واللوعة المصفاة . وويل للقلوب من الحسرة الخالصة ، فانها تلتهم الحياة كما تلتهم النار الحطب . وويل للنفوس من اللوعة المصفاة ، فانها افتك بها من السم الزعاف .

\*

وانت تشكو إليّ تنكّر فلان لك وازوراره عنك وتأليبك عليك . وماذا تريد ان اصنع وقد تنكّر لي قبل ان يتنكر لك ، وازورّ عني قبل ان يزورّ عنك ، وألّب علي قبل ان يؤلب عليك . وهلا سرت فيه سيرتي ولقيت قطيعته كما لقيتها ؟ فاني لم أشك اليك ولم أشك الى احد من تنكّره وتمنّره وازوراره ، وإنما طويت عن هذا كله كشحاً ، وضربت عنه صفحاً ، واضفته الى هذه المحن التي يُمتحن الناس بها في هذه الايام ، والتي لا حاجة الى احصائها لأنها اكثر من الاحصاء ، ولا الى التفكير فيها لانها قد كثرت وكثرت حتى اصبحت اهون من ان نفكر فيها او نقف عندها او نضيع في استعراضها ما بقي لنا من الوقت والجهد والنشاط . فأقبل على الناس ما قبلوا عليك ، وأعرض عنهم ما عرضوا

عك ، وامنحهم من قلبك صفوه وعفوه . لا تضر لهم كيداً  
ولا تبغهم شراً ولا تدخر عليهم موجدة ، وأرح نفسك  
وارحني ، وأرح الناس من شكوى الزمان ، والتبرم  
بالاخوان ، والحزن لقطيعة الصديق ، والأسى لغدر الخليل .  
وألق عن نفسك هذه الفكرة الخاطئة ، فان الزمان لم يتغير  
وان طبيعة الناس لم تتبدل ، وليس الزمان الذي تعيش فيه  
بشرّ من الزمان الذي عاش فيه اسلافك ، وليس الجيل  
الذي تعاشره بشرّ من الجيل الذي عاشره الآباء والاجداد .  
فالشمس تجري لمستقرّ لها منذ كانت الشمس ، والنهار والليل  
يستبقان منذ كان الليل والنهار ، والانسان هلوع منذ كان  
الانسان ، يجزع ان مسه الشر ، ويجزع ان ظن ان قد يمسه  
الشر ، ويبخل ان مسه الخير ، ويهيء نفسه للبخل ان ظن  
ان قد يمسه الخير .

وصاحبك هذا الذي جفاك بعد صفاء ، ونا جانبه بك  
بعد لين : هلوع كغيره من الناس ، اشفق ان يجرّ عليه  
مودتك شراً فاتقاه بسد الذرائع كما يقول الفقهاء ، وخاف على  
ما في يده من الخير ان ينقصه اتصاله بك فاستبقاه بقطيعته  
لك وابتغى منه المزيد . فقيم تلومه وقد جرى مع طبعه  
وارسل نفسه على سجيتها ، فاتقى الشر ما وجد الى اتقائه  
وسيلة ، وابتغى الخير ما وجد الى ابتغائه سبيلاً؟!

\*

وحضارة الناس متكلفة ، كانت بعد أن لم تكن ،



واستحدثت شيئاً فشيئاً بعد ان عاش الناس دهرًا لا حظ  
لهم منها ولا سهم لهم فيها . فليس غريباً ان تغلبها الغرائز  
بين حين وحين ، وليس غريباً الا تثبت لقوة الطبع ،  
وسجية النفس ، وحب الحياة ، والتاس المنافع واستبقائها .  
والصداقة اثر من آثار هذه الحضارة المتكلفة المكتسبة .  
فهي تجري على وتيرتها وتسلك طريقها ، وتتأثر بما تتأثر به  
من الخطوب والاحداث .

وانت ترى الخوف يُخرج الناس عن اطوارهم ، ويذهلهم  
عن اقدارهم ، وينسيهم ما يحسن وما لا يحسن ، ويخفي عليهم ما  
يجمل وما لا يجمل ، ويلبس عليهم ما يليق بما لا يليق . والقوانين  
المشروعة تغفر لهم ما يدفعهم اليه الهلع والفرع من المآثم  
والموبقات . وقد هلع صاحبك حين رأى الامر الى من لا  
يجبك ولا يدانيك ، فمال مع الريح ، وانعطف مع المنفعة  
وأثر ذنسه بالخير ، وضحى بالود القديم ، فاغفر له واصفح  
عنه ، ولا تضع نفسك في موضعه ، ولا تقل انك  
قد امتحنت بمثل محنته فوفيت للصديق وضنت بالاخاء ،  
فليس كل الشجر يثبت للريح العاصفة ، وانما يثبت لها الشجر  
الضخم الذي رسخت اصوله في الارض وارتفعت فروعه في  
السماء . فقل انك شجرة تثبت للريح وان صاحبك هذا  
نجم يميل معها كل ميل .

ولا تقل ان الناس يخطون حين يسرفون في  
الصداقة ، ومن حقهم ان يخلوا بها ؛ ويبدرون المودة ،

ومن حقهم ان يحرصوا عليها ويقتصدوا فيها ، لان حياتهم قصيرة والصديق الوفي نادر قليل . فكل هذه خواطر وآراء لا تخطر الا للذين تأصلت في نفوسهم الحضارة ، ورسخت في قلوبهم المودة ، كما رسخت في الراحتين الاصابع على ما يقول قيس بن ذريح . وهؤلاء هم الصفوة القليلة التي لم تخلق لتشيح وتكثر ، وانما خلقت لتقلّ وتدخر ، وتكون مضرّباً للمثل ، وموضوعاً لاحاديث الكتب ، ومسرحاً لخيال الشعراء .

\*

وانت قد قرأت الكتب ، ورويت الأخبار ، ووعيت الآثار ، وحفظت الحكم النادرة والأمثال السائرة ، وعلمت فيما علمت ان من حماقة الناس ان يبخلوا بالمال ومن حقه ان ينفق في وجوهه بغير حساب ، وان يسرفوا في الصداقة ومن حقها ان يبخل بها اصحابها اشد البخل واعظمه واقساه ، لأن المال غادٍ ورائح يذهب عنهم اليوم وقد يعود اليهم غداً ، لان الصداقة ليس من طبيعتها العدو والرواح ولا الجي والذهاب ، وانما طبيعتها الثبات والاستقرار . فاذا رأيت من يبخل بالمال حين يجب انفاقه ، فاعلم انه احق سفيه ، وامنحه من نفسك ازدرائها في غير هوادة ولا رفق . واذا رأيت من يسرف في الصداقة ويذرّها تبذيراً ، فاعلم انه شرير من اخوان الشياطين ، وامنحه من نفسك مقتها وغضبها في غير مهل ولا اناة . وارفع نفسك على كل حال

عن الاحتفال بمن يبخل بالمال ، والالتفات الى من يسرف في  
الصدقة ، وكلّهما جميعاً الى غرائرها الجاحمة وطبائعها المنحرفة ،  
لا تقدر لهما قدراً ولا ترجُ لهما وقاراً ولا تحسب لهما حساباً ،  
ولا تكلف نفسك في سبيلها حزناً ولا ألماً ولا عناء ، فهما  
أهون من ذلك وأقل شأنًا .

\*

اما بعد ، فقد تلقيت كتابك وانا انعم بحياة راضية لا  
لغو فيها ولا تأثيم ، قوامها القراءة ومعاشرة هؤلاء الاصدقاء  
الذين لا يملون ولا يثيرون في انفسنا الملل . . الذين يستجيبون  
لنا اذا دعوناهم ، ويمنحوننا الروح اذا استرحنا اليهم . لا  
يمنون ، ولا يتجنون ، ولا يتكفون المعاذير ، ولا يتلمسون  
العلل ، وانما يستجيبون لنا هوناً حين ندعوهم ؛ وينأون عنا  
هوناً حين ننصرف عنهم ، لا يتعللون ولا يتعتبون ولا  
يتكذبون ولا يفسدون علينا الحياة بالمكر والكيد والرياء  
والنفاق ، يظهروننا على ذات نفوسهم في اصرح الصراحة  
واصدق الصدق وأوفى الوفاء .

اتعرفهم ؟ انهم اخوان الصفاء حقاً ، انهم جديرون بان  
نمنحهم ودنا في غير تحفظ ، ونخلص لهم حنا في غير اقتصاد .  
فلن نجني من ذلك الا خيراً . انهم الكتب يا سيدي !  
الكتب التي يكتبها الناس على اختلاف طبائعهم ، وتفاوت  
حظوظهم من نقاء القلوب ، وصفاء الطباع ، واعتدال الامزجة ،  
وطهارة الضمائر .

ليس عجباً انك تقرأ الكتاب فتجد فيه غذاء قلبك  
وعقلك وذوقك ، تجد هذا كله صفواً لا يكدره مكر ولا  
يشوبه شائب ، فاذا بحثت عن كاتبه فعسى ان تعرف انه  
كان انكد الناس حياةً ، واكدرهم طبعاً ، واسوأهم مزاجاً .  
فاعجب للخير المحض يُستخلص من الشر المحض ، والنقاء  
النقي يُستخلص من الدنس الدنس . صدقني اذا ضقت بالناس  
فتعزّ عنهم بما يكتب الناس ، واحمد لهم بعد هذا كله انهم  
يسئون كثيراً ولكنّ بينهم قوماً يحسنون كثيراً ، وأنهم  
يجرحون القلوب ولكنّ بينهم قوماً يأسون الجراح .  
فاعرف لهم ذلك واغفر لمسيئتهم شكراً لمحسنهم ، واقبأهم  
آخر الأمر على علائهم ، واذكر دائماً قول ابي العلاء :  
وهل يأبق الانسان من ملك ربه  
فيخرج من أرض له وسماء ؟ !!

## فهرست

صفحة	
٨	رسالة الشكر والكفر
٦٨	رسالة الامر والنهي
٢٨	الوشاية والوشاة
٣٥	رسالة القصد والغرور
٤٣	رسالة إلى ...
٥٥	قلب مغلق
٦٦	من بعيد
٧٨	صرعى
٨٦	نفوس للبيع
٩٥	كما أنت
١٠٤	مصر بين النعيم والجحيم
١١٣	الحرية أولاً
١٢٣	ويل الشجي من الخلي
١٣٢	لا و نعم
١٤٢	صحائف الأنبياء
١٥١	اخوان الصفاء

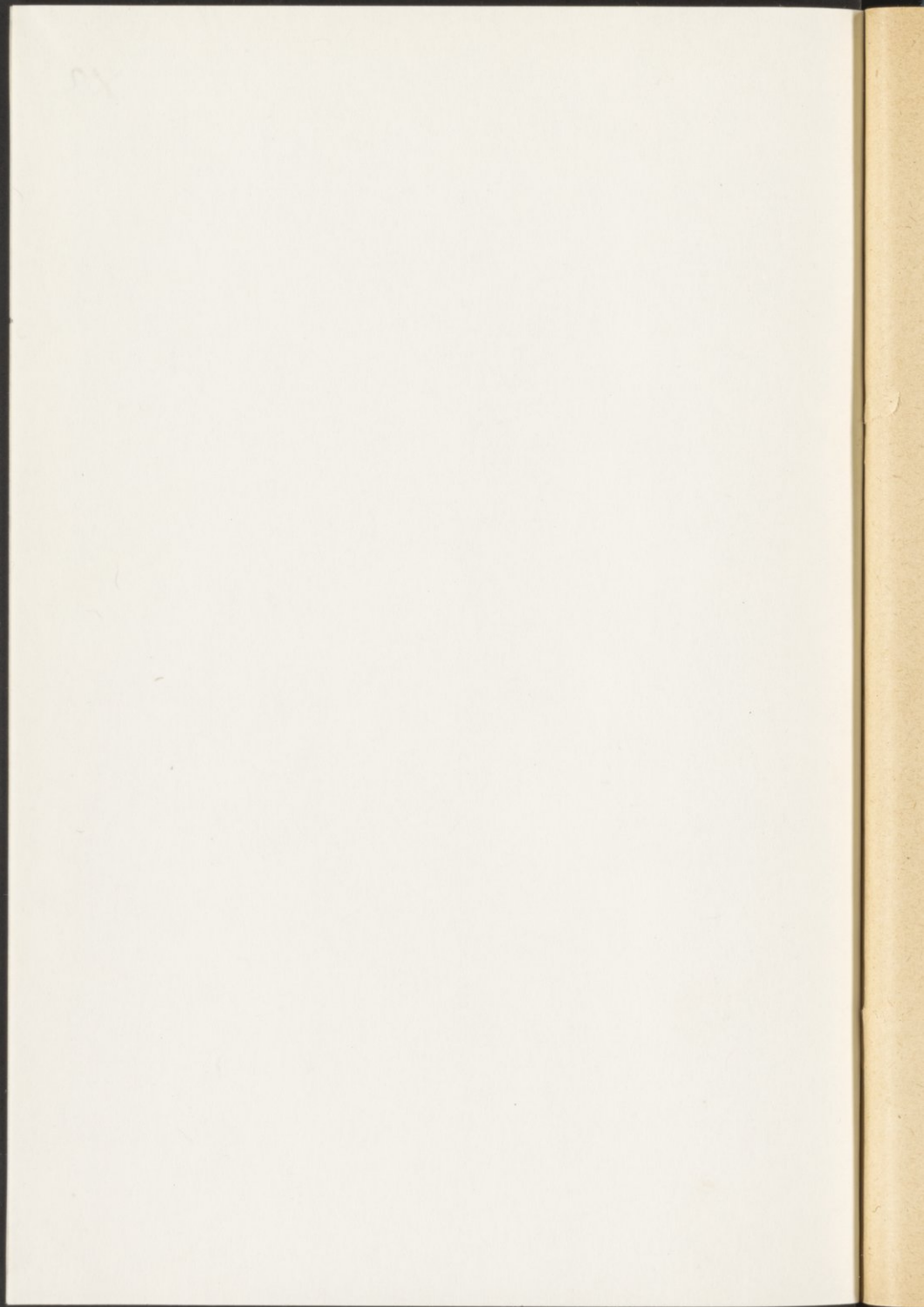
X3  
3

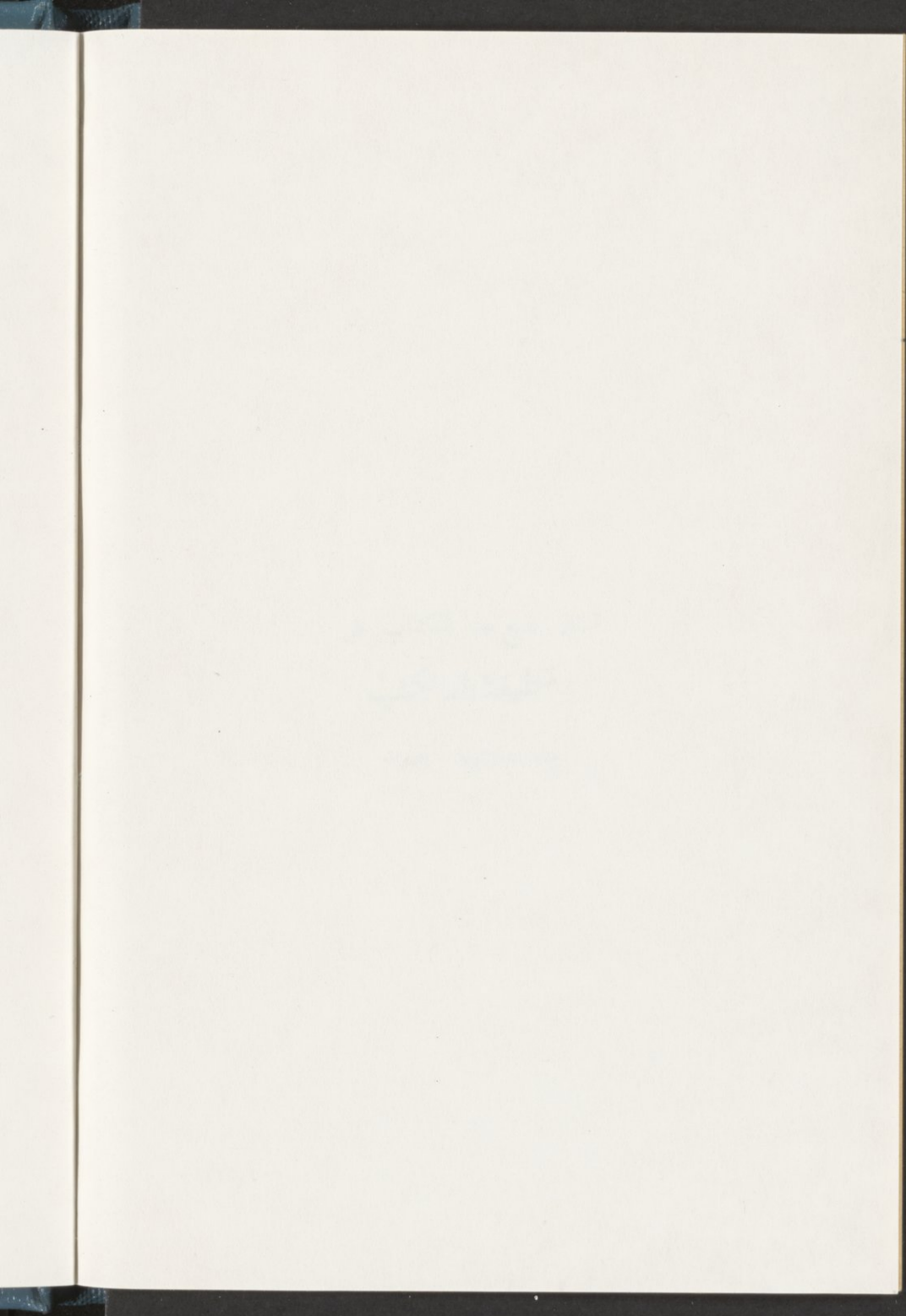
انتهى طبع هذا الكتاب على

مطبعة دار الكتب

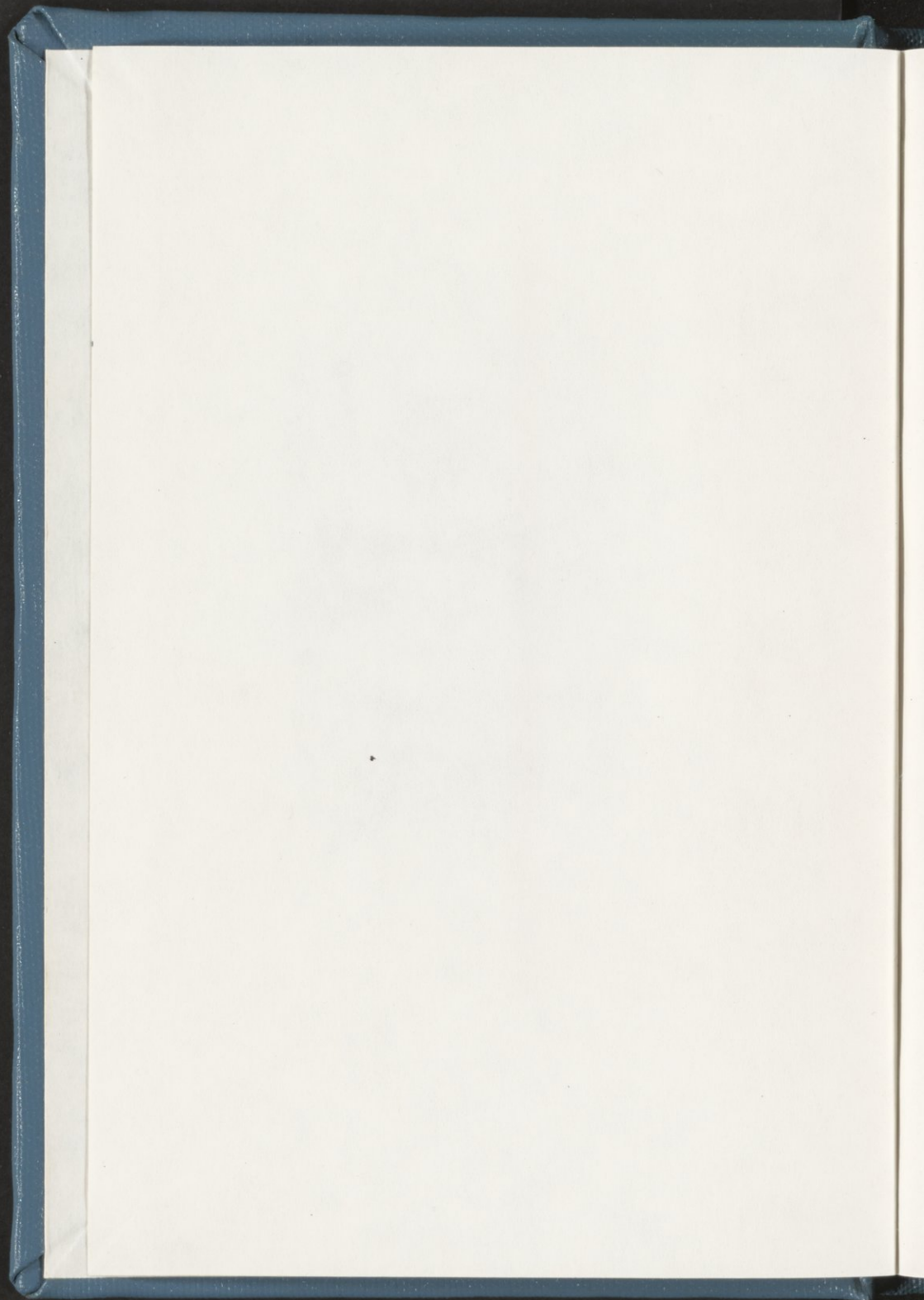
بناية العازارية - بيروت

٥٢/١٢/١٠٧









NYU - BOBST



31142 01216 2601

PJ7864.A35 M5 1953

Mir'at al-